الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الرقم التسلسلي.....

جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

الشخصية في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق

- دراسة نفسية -

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبتين:

✓ محيوص ياسمين

✓ ديدي أميرة

إشراف الأستاذ:

د/ سليمان قارة محمد

أعضاء اللجنة

الأستاذ: فيصل الأحمر	أستاذ التعليم العالي	رئيســــــــا
الأستاذ: سليمان قارة محمد	أستاذ محاضر_ب_	مشرفا ومقررا
الأستاذ: نور الدين سعيداني	أستاذ محاضر _ب_	ممتحنا

السنة الجامعية: 1441- 1442 هـ/ 2020-2021م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الرقم التسلسلي.....

جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل –

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة:

الشخصية في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق

- دراسة نفسية -

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب حديث و معاصر

إعداد الطالبتين:

✓ محيوص ياسمين

✓ ديدي اميرة

إشراف الأستاذ:

د/ سليمان قارة محمد

أعضاء اللجنة

الأستاذ: فيصل الاحمر	أستاذ التعليم العالي	رئيســــــــا
الأستاذ: سليمان قارة محمد	أستاذ محاضر "ب"	مشرفا ومقررا
الأستاذ: نور الدين سعيداني	أستاذ محاضر "ب"	ممتحنا

السنة الجامعية: 1441- 1442 هـ/ 2020-2021م

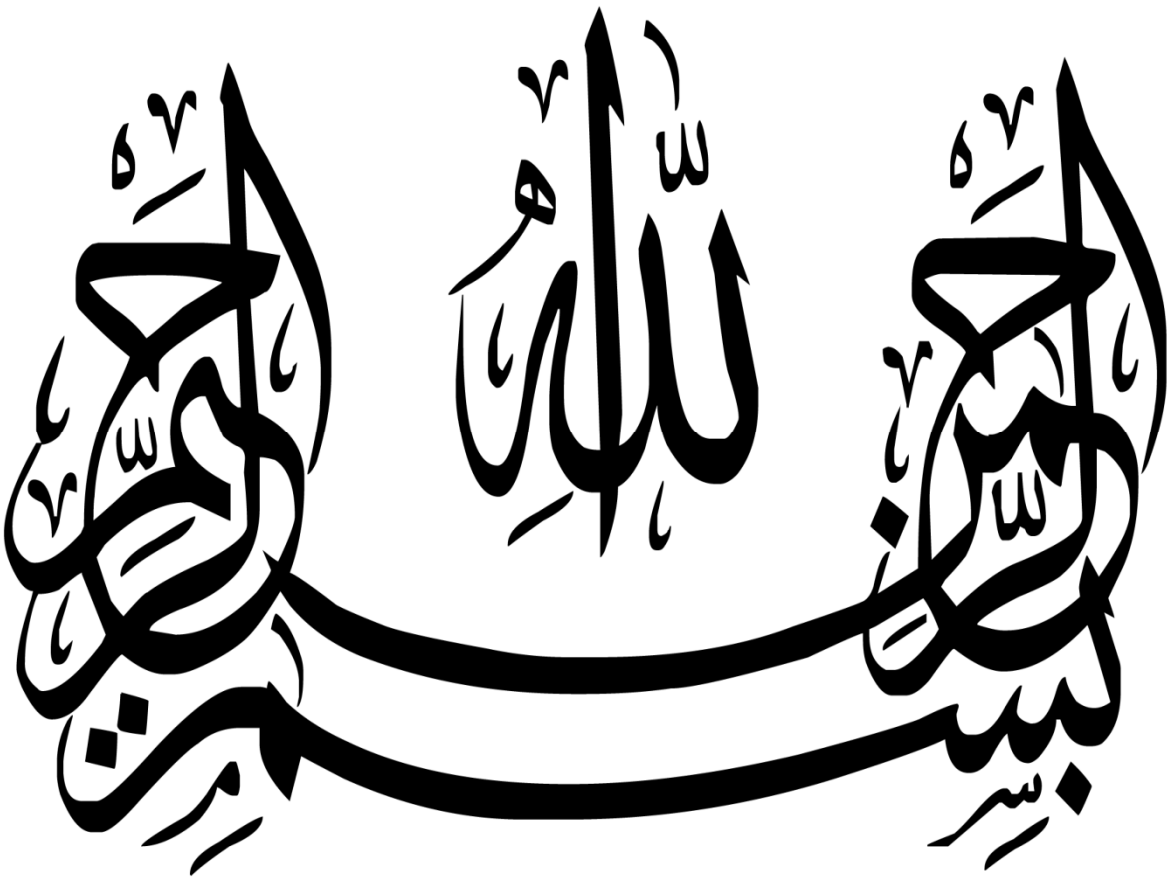
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

نتقدم بالشكر الجزيل

إلى الذي له الفضل والمنة في ...كل نجاح وفقنا فيه...

إلى الذي علمنا ما لم نكن نعلم ...إلى الذي ملأ الوجود

نوره فما لنا من نوره سواه....

الله عز وجل

واقتداء بقول الحبيب محمد عليه خير الصلاة والسلام

"...ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما

تكافئوه به، فادعوا له حتى تروا أنكم كافأتموه"

والشكر موصول للأستاذ المشرف: سليمان قارة محمد

ومن بعد يطيب لنا أن نتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من

ساهم من قريب أو بعيد في مساعدتنا على إنجاز هذا

العمل

أميرة - ياسمين

مقدمة

مقدمة:

تأثر الأدب العربي بصفة عامة والرواية المصرية بصفة خاصة بالتغيرات الإجتماعية والسياسية والثقافية خاصة بعد ظهور النزعة المادية المستبدة، حيث لعب التطور والنضج العلمي الذي وصل إليه الإنسان الدور الكبير في ظهور نوع جديد من الأدب وهو ما يطلق عليه " بأدب الخيال العلمي" والذي أعطى تصورا خياليا للمجتمعات الإنسانية.

وقد لجأ الكتاب الى توظيفه كي يسلطوا الضوء على القضايا الموجودة في العالم الواقعي والتي بدورها تتعلق بثقافة المجتمع وبيئته، وسياسته ،ودينه، ونفسيته وذلك من خلال عوالم خيالية تنبئية تكهنية مستقبلية متبنين بذلك فلسفة " اليوتوبيا والديستوبيا" التي تقوم على المدن الخيالية المثالية الفاضلة ،حيث ينتشر فيها العدل والخير والسلام و المدن الفاسدة والتي تقوم على الخراب والقتل والجهل والدموية، وتعتبر هذه الرؤية موضوعا قديما وجديدا في آن واحد ، فهي قديمة لأنها ظهرت بظهور الحياة الإنسانية عبر مراحلها التاريخية وجديدة لأنها اكتست طابع العصرنة وتماشت مع أشكالها ومظاهرها المختلفة، وقد اقترنت هذه الرؤية بالجانب النفسي للمجتمعات البشرية كونها خلفت صراع الإنسان مع الوجود ومع ذاته، وهذا ما جعلها رائجة في العديد من الأعمال الأدبية وخاصة أعمال " الدكتور أحمد خالد توفيق" وعلى رأسها روايته " يوتوبيا" التي قمنا بدراستها في بحثنا الموسوم بعنوان «الشخصية في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق دراسة نفسية»، حيث أنه سخر قلمه للحديث عن ثنائيتي اليوتوبيا والديستوبيا ومدى إنعكاسها على نفسية شخصيات مدنها، كون هذه المدن الخيالية ليست بعيدة عن واقعه المصري الذي يعاني من الإنقسام الطبقي الذي أفرز مدنا مثالية حاكمة وأخرى منعدمة محكومة، فتكون بذلك مجتمعا يعاني من العقد والمشاكل النفسية.

وتنبع هذه الدراسة من أهمية إنتشار هذا الفكر (اليوتوبي والديستوبي) في العالم العربي وتأثيره القوي على البناء الاجتماعي وعلى التركيبة النفسية والفكرية للفرد العربي، فهو يرسم حاضره ومستقبله وأي خلل في بنية المجتمع ينعكس مباشرة على تطوره.

كما كان الهدف من هذه الدراسة هو معرفة قدرة تأثير هذه الثنائية على سلوك الإنسان و أحواله النفسية، وكذا تسليط الضوء على طبيعة العلاقة القائمة بينها وبين الحالة الاجتماعية والنفسية للمجتمع المصري والعربي بصفة عامة.

ولذلك حاولنا أن نخوض في الإشكال الذي يطرح أهمية الفكر اليوتوبي والديستوبي في بناء الشخصية العربية إنطلاقا من الرواية لنجيب عن التساؤلات:

- ما هي أنواع الشخصيات اليوتوبية والديستوبية؟
- وكيف انعكس (المكان، اللغة، الدين) على نفسيتها؟

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج التحليلي النفسي وكذا الوصفي وذلك من خلال تحليلنا لأنماط الشخصيات ووصفنا للحالة النفسية التي تعيشها، وقد كان بحثنا مكونا من مدخل وفصلين ومقدمة وخاتمة وملحق.

وقد جمعنا بين الجانب النظري والتطبيقي في كل من الفصلين :

أما الفصل الأول فقد حمل عنوان الدلالات النفسية للشخصية اليوتوبية والديستوبية وفيه تناولنا مفهوم الشخصية (لغة، اصطلاحا، في علم النفس) وكذا أنماط الشخصيات اليوتوبية وأنماط الشخصيات الديستوبية.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان إنعكاس نفسية الشخصيات اليوتوبية والديستوبية من خلال (المكان، اللغة، الدين).

وفي سعينا إلى جمع المادة المعرفية التي من خلالها ندعم عناصر هذا البحث، كان لزاما علينا الاستعانة بمجموعة من المصادر والمراجع التي اختلف وتفاوت من حيث استفادتنا منها، وتنوعت ما بين الأدب وعلم النفس وتمثلت في:

- احمد زياد: الرواية دراسات نقدية متنوعة
- فيليب هامون: سيميولوجيات الشخصية الروائية
- آمنة يوسف: السرد في النظرية والتطبيق
- أحمد عكاشة: علم النفس الفسيولوجي
- سوسن شاكر اضطرابات الشخصية أنماطها، قياسها

وفي مسار بحثنا هذا وكأي بحث علمي لابد أن تكون هناك صعوبات لعل أهمها في بحثنا:

- نقص المادة العلمية التي تخدم الجانب المتعلق (باليوتوبيا والديستوبيا) ، ولكن هذه الصعوبات زادتنا عزما واجتهادا من أجل الخروج بعمل يرضي طموحنا ولا يخيب من توسم فينا خيرا.

وفي الأخير نخلص إلى شكر كل من ساعدنا في إتمام هذا البحث وإخراجه على صورته الأخيرة، ونخص بالذكر الأستاذ " سليمان قارةمحمد" شاكرين له جهوده فقد كان نعم السند والمعين.

مدخل:

لمحة عامة عن ثنائية "اليوتوبيا" و"الديستوبيا"

إنّ شغف الإنسان بالجمال والفن والكمال والمثالية دفع به إلى محاولة تجسيد فكرة العالم المثالي أو الفردوس الأرضي، وهي فكرة راودت خياله فقد اقترنت لحظة بداية الحضارة البشرية بنموذج التمدن وخلق مجتمع يحمل القيم والمبادئ المثلى والرقي الحضاري، الذي لا يكون إلا من خلال نموذج المدينة الراقية التي تطمح إليها البشرية، وهذه الفكرة قد لازمت خيال الإنسان وهذا الأخير يلعب الدور الأكبر في بروز كل الأشكال اليوتوبية بدءًا من "أفلاطون" في جمهوريته التي تعد النموذج الأول لكل اليوتوبيات إلى جانب النماذج الفردوسية التي قدمتها الديانات السماوية، وقد تناول الفلاسفة فكرة خلق مجتمع مثالي يوتوبي منذ زمن قديم، حيث كان حلمهم خلق مدينة يوتوبية تختفي فيها كل الشرور ويتفانى فيها الأفراد لتحقيق أهدافا سامية كالمساواة والعدالة وهناك اختلافات في معايير الخير والفضيلة، وهذا ما أعطى لليوتوبيات أبعادا اجتماعية، اقتصادية، سياسية، وقد عبر الفلاسفة والمفكرون عن الفكر اليوتوبي في أشكال أدبية مختلفة كالقصة والرواية، القصيدة، المقالة، وقد أطلق على الأفكار الغارقة بالمثالية أو التي لا يمكن قبولها أو تطبيقها بالأفكار اليوتوبية.

1-مفهوم اليوتوبيا:

اختلفت دلالات مصطلح اليوتوبيا ففي مفهومها اللغوي:

«تعتبر كلمة يوتوبيا كلمة دخيلة على اللسان العربي واللفظة القريبة من حيث المعنى ومن حيث المبنى كلمة طوبى هي مصدر بمعنى الطيّب أصله طيبي، قلبت الياء واوا لسكونها بعد الضمة وهي أيضا جمع الطيبة بالكسر وهو من نوادر الجموع» [1].

وقد استعملت كلمة "طوبيا" في بعض عناوين الكتب المترجمة مثل: كتاب طوبيا والطوباويين من طرف الأستاذ خليل أحمد خليل لكتاب: (utopie et les utopiste).

[1] عبد الله البستاني، البستان، ج2، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1930م، ص1148.

أمّا في السياق القرآني فالكلمة التي تتقاطع في المبنى والمعنى جزئيا مع دلالات يوتوبيا هي كلمة طوبى وقد وردت في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿***الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ***﴾[1].

وقد اختلف علماء التفسير في المعنى الذي تحمله الكلمة لأنّ الدلالات القرآنية مرنة وقابلة للانطباق على السياقات الممكنة، ولكن المعنى الذي اتفق عليه هو المعيشة والحياة السعيدة التي أعدها الله لعباده المخلصين أي الجنة وهي حقيقية، أمّا اليوتوبيا فهي تصوير إنساني للجنة وهي حلم.

وجاء في الميزان تفسير الكلمة: «طوبى على وزن فُعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهي صفة لمحذوف وهو على ما يستفاد من سياق الحياة أو المعيشة وذلك أنّ النعمة كائنة ما كانت إنّما تغتبط وتهنأ إذا طابت للإنسان ولا تطيب إلا إذا اطمأن القلب إليه وسكن ولم يضطرب» [2].

ومن التعاريف اللغوية السابقة يمكن القول أنّ كلمة "يوتوبيا" كلمة غريبة عن اللسان العربي وما يقابلها في المعاجم اللغوية العربية كلمة "طوبى" والتي تحمل المعنى الأقرب لها وهي تعني الحياة الكريمة والمعيشة السعيدة المثالية المغدقة بالخيرات والنعم.

أمّا من الناحية الاصطلاحية:

يعتقد بعض المتخصصين في الدراسات اليوتوبية أنّ لفظة "ايتوبيا" ترجمة للكلمة اللّاتينية "Nusquama" المشتقة من "Nusquan :lenulle-part" والترجمة الحرفية للمصطلح تشير إلى أنّ دلالة الكلمة هي "اللامكان" أو "لا مكان له" أو "ما لا أين له"، ومعناها المكان الذي لا وجود له في أي مكان. [3]

فاليوتوبيا هي تصور لمكان لا يمكن إدراكه في الواقع، وهي كل ما لا يتصل بالواقع ولا يمكن تحقيقه أي هي ذلك المكان المثالي الرائع الموجود في عالم الخيال والأحلام.

---

[1] الرعد، الآية 29.

[2] محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، ج11، ط1، 1997م، ص359.

[3] عبد العزيز لبيب، "الإيطوبيا والإيطوبيات"، مجلة فصول، مجلد 07، العدد (3-4)، 1987م، ص123.

واليوتوبيا اصطلاح ومنحوتة لغوية، بدأت في السياق اللغوي الانجليزي (utopia) اعتمدت فيها اللغة الإغريقية كأرضية اشتقاقية، وهي تركيب بين كلمتين، من كلمة (ou) وتعني (No) أي اللا، وكلمة (topos) التي تعني مكان (place)، والكلمة تعني (No place) وتصبح اليوتوبيا ليست مكانا، أو اللاّمكان.[1]

انطلاقا من هذا التعريف يمكن القول بأنّ كلمة يوتوبيا تدل على تصور مكتنز بالمثالية والكمال، وهي فكرة يصعب تطبيقها على أرض الواقع لذلك تبقى معلقة في خيال وأحلام متصوريها بما تحمله من مغالاة في المثالية واللذة العظمى.

وقد ظهرت لفظة اليوتوبيا في الفكر اليوناني القديم: «الكلمة يونانية الأصل، وتدل على ما يوجد في أي مكان ويراد بها كل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها» [2].

والأتوبيا تطلق أيضا على المثل العليا السياسية والاجتماعية التي يصعب تحقيقها: «تدل عبارة الاتوبيا في الوقت نفسه على نوع أدبي وعلى نوع من السياسة الخيالية، وكذلك على تحقق شكل من التنظيم الاجتماعي غالبا ما يكون إكراها وأحيانا فظا، يفترض أن يجسد فيه مثال يشتهر بأنّه جيد بصورة مطلقة» [3].

كما يحدد مفهوم اليوتوبيا "عبد المنعم الحنفي" في موسوعته، حيث يحددها بأنّها: «مجرد فرضيات وتخيلات لا تمت بصلة إلى الواقع، فاليوتوبيا هي المكان المتخيل الذي لا وجود له على أرض الواقع» [4].

فاليوتوبيا حسب هذا المفهوم هي المكان المناقض للواقع.

كما نلمس الرؤية نفسها في المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية: «طوبيا هي كل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها ،أو ما لا يعبر عن الواقع ويكون أشبه بالخيال» [5].

---

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، (باب الطاء)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ص24.

[2] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، حرف الطاء، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م، ص113.

[3] إسماعيل عبد الفتاح، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، عربي إنجليزي، دط، دت، ص502.

[4] عبد المنعم لبيب الحنفي، مقدمة في فلسفة التربية، ط2، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1967، ص 61

[5] مجموعة مؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ص113.

ويبقى الفكر اليوتوبي هو ذلك الفكر البعيد عن الواقع المعاش الذي يطمح الإنسان إلى تجسيده على أرض الواقع بجميع أبعاده، رغم أنّه في نظره لا يزال بعيد المنال.

2.أعلام اليوتوبيا

1.2/ في العصر القديم:

يعتبر اليونانيون القدامى أبرز من تميز بالفكر الفلسفي والسياسي، فقد اشتهروا بالأساطير وتصور الدول المثالية الخاصة سواء بالماضي الأسطوري أو المستقبل، بالإضافة إلى فن الحكمة، وهذا ما ألهم كتاب الفكر اليوتوبي ومؤسسي المجتمعات المثالية، ومن أبرز من كتب في الفكر اليوتوبي في العصر القديم نجد "أفلاطون" (platon) الذي عاش قبل الميلاد بحوالي أربع مائة سنة، وذلك في كتابه "الجمهورية"؛ حيث آمن بضرورة الالتزام الأخلاقي ويعتقد أن تنظيماته متوافقة مع قانون الطبيعة حيث يقول في جمهوريته: «إنّ الحقيقة التي أقرتها الطبيعة هي أن المريض سواء كان غنيا أم فقيرا، ينبغي عليه أن ينتظر على باب الطبيب» [1].

و"أفلاطون" من خلال جمهوريته التي بناها يسعى إلى تحقيق عالمه المثالي الذي لا يقبل فيه سوى بالمثل العليا، وقد أدرك "أفلاطون" العلاقة بين الفن والأخلاق؛ أي بين الفن والسياسة ودافع عن الحقيقة والجمال ،وأراد المحافظة على الدولة من التأثير الضار أي الفن الحر، حيث أنّه قد طرد بعض الشعراء من جمهوريته المثالية الفاضلة.

ويعتبر "أفلاطون" أول من نظر لدولة يمكن القول عنها جمهورية مثالية، فهو يرى بأنّ الإنسان يجب أن يجتمع مع غيره من أجل تلبية غاياته وتحقيقها، «فالدولة تنشأ بسبب عدم استقلال الفرد بسد حاجاته بنفسه وافتقاره لمعاونة الآخرين» [2].

---

[1] ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، تر: (عطيات أبو السعود)، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، ص129.

[2] حنا خباز، جمهورية أفلاطون، دار القلم، بيروت، 1958م، ص56.

والغاية من نشأة الدولة بالنسبة لأفلاطون هي تحقيق الحكمة والفضيلة «الفضيلة والسعادة لا اللذة للمواطنين، وتصبح بالتالي الوظيفة الأولية للدولة هي وظيفة تربوية» [1]، فأفلاطون يسعى من أجل أن يجد مجتمعا مثاليا خاليا من الفساد تحكمه أخلاق سامية وحياة سعيدة وقد أسس "أفلاطون" جمهوريته بصورة نموذجية للمجتمع المدني اليوتوبي ويعبر عنه في قوله: «والآن ألا توافقني أن خطة دولتنا ودستورنا ليس مجرد أوهام وأنّه إذا كان تحقيقها صعب فهو ممكن» [2].

2.2/ الفرابي:

يعتبر "الفرابي" من أهم المفكرين العرب الذين تطرقوا إلى المدينة الفاضلة المثالية، وذلك من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، فهو يرى بأنّ الإنسان مدني بطبعه ويميل إلى العيش في مجتمع وهذا فطري فيه، فهو لا يستطيع أن يحقق كماله بنفسه ، وقد أطلق "الفرابي" على الإنسان لقب "الحيوان المدني"؛ فالإنسان في مفهومه مضطر بطبيعته إلى الاجتماع مع غيره من بني جنسه من اجل تحقيق كماله لان الاجتماع هو وسيلة لتحقيق كماله وليس غاية[3].

فالاجتماع عند "الفرابي" أمر جُبِلَ عليه الإنسان بطبيعته التي فطره الله عليها، فالمدينة المثالية عند "الفرابي" هي تلك التي يجتمع فيها البشر في نظام مدني، حيث نجد "الفرابي" في كتابه "آراء أهل المدينة" يقول: «وكل واحد وجد من الناس مفطور على أنّه محتاج غيره في أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده بل يحتاج (...) فيجتمع مع الجماعة إلى أن يبلغ الكمال ولهذا كثرت التجمعات الإنسانية» [4].

---

[1] ستيس ولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: (مجاهد عبد المنعم مجاهد)، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1984م، ص193.

[2] حنا خباز، مرجع سابق، ص155.

[3] محمد حسين مهدي، المدينة الفاضلة في فلسفة الفرابي وموقف الإنسان منها، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2014م، ص77.

[4] علي عبد الواحد وفي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ط2، لجنة البيان العربي للنشر والتوزيع، 1961م، ص20.

فالإنسان مدني بطبعه ويحتاج أن يبني مجتمعا خاصا به، فهناك أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها لوحده، بل هو محتاج إلى عمل الجماعة من أجل بلوغها والوصول إليها.

إنّ المجتمع المثالي في مدينة "الفرابي" الفاضلة يقوم على التعاون وتقسيم العمل وتبادل الحاجات لأنّ الناس يحتاجون لبعضهم البعض «فالعمل من أجل تحقيق غايات المجتمع واهدافه يحقق الكمال لأفراده والسعادة ،فالفرد هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع ولولا وجوده لما ظهر التجمع البشري أو بمعنى آخر المجتمع» [1].

فالكمال والمثالية التي يسعى الإنسان لتحقيقها في مدينة "الفرابي" تكون من خلال التعاون بين أفراد المجتمع، فلولا التعاون بالنسبة له لما كثرت الجماعات ولما عمرت الأرض، والتعاون يكون طلبا لسعادة مجتمع المدينة أو الدولة المثالية الفاضلة عند الفرابي ، فهذا التعاون بين أفراد المدينة لا يخرج عن دلالات مفهوم الغير الأسمى والسعادة المطلقة التي يحققها الإنسان، فالفرابي يطمح إلى المدينة الفاضلة التي تقوم على الكمال من خلال التعاون وتقسيم العمل بين أفراد المجتمع يقول: «لا يمكن أن للإنسان الكمال إلّا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد ببعض التعاون ما يحتاج إليه قومه» [2]، أي أنّ الناس جميعا لكي يعيشوا في عالم الكمال عالم المثل (أي المدينة الفاضلة) يجب أن يسعوا إلى مساندة بعضهمم والتعاون من أجل تحقيق الرقي والسمو نحو الأفضل نحو المثالية.

3.2/ توماس مور (Tomas More):

يعتبر المفكر الانجليزي "توماس مور" (1535/1478) أول من استعمل مصطلح "يوتوبيا" في روايته التي حملت اسم المصطلح، وتتألف الرواية من كتابين لا يعرف أي منهما كتب قبل الآخر، ويتضمن الأول وصفا تفصيليا للجزيرة التي تتكون من أربع وخمسين مدينة متساوية في عدد السكان والمنشآت، ولأهلها قوانين وعادات مشتركة ويقوم النظام المثالي في الجزيرة على العدالة التي لا تتحقق إلّا عن طريق اشتراكية الحياة وإلغاء الملكية

[1] علي عبد الواحد وفي ، اراء اهل المدينة الفاضلة، ص 15-16.

[2] أبو نصر محمد الفرابي، آراء المدينة الفاضلة ومضاداتها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص71.

الخاصة، أمّا الثاني فيحتوي على وصف للحياة في الجزيرة وليوميات السكان ولنظام الحكم ونظام العمل والحياة الاجتماعية ويتطرق في هذا الجزء إلى الأسس الفلسفية للحياة.

ومن خلا هذه الرواية يريد "توماس مور" أن يبرز ملامح المدينة المثالية التي توجد في مكان ما في هذا العالم، يريد أن يصور الحياة المثالية التي يتعين على بني البشر أن يعيشوها، وصفات الملك المثالي، فاليوتوبيا عند "مور" مشروع تجديدي للوضعية السياسية المعقدة في إنجلترا خصوصا وأوربا عموما من خلال العدالة والمساواة، من خلال نظام سياسي مؤسس على حكمة متعالية يقول"مور": «ويشغل الحاكم منصبه طول حياته، ما لم يعزل إن اتهم بالميل للطغيان، أمّا الرؤساء الأوائل فينتخبون سنويا ولكنهم لا يستبدل بهم غيرهم إلّا لسبب قوي» [1].

فهو من خلال هذا القول يصور لنا نظام الحكم في العالم المثالي الذي تطمح له أي دولة يوتوبية، التي يكون فيها الحاكم مجرد صورة شكلية فقط فوجوده يماثل عدمه.

ففضاء عالم المواطنين في مجتمع فضاء أخلاقي والعلاقات الاجتماعية بينهم مبنية على السلوك الأخلاقي التلقائي والطبيعي فيهم ، وهو يؤكد ذلك في قوله: «فإذا نشأ خلاف بين فردين من أفراد الشعب وقلّما يحدث ذلك، فإنّهم يسوونه من دون إبطاء» [2].

فهو يؤكد أنّ عالم المثل عالم المدينة الفاضلة التي يسعى إليها لا وجود لنزاع أو صراع بين أفرادها ، والتصادم بينهم نادر فهو يسعى إلى مجتمع راق مثالي وهو ما يصطلح عليه بالمجتمع اليوتوبي، فالمساواة والعدالة في المجتمع اليوتوبي سمة عامة وبديهية لا تحتاج إلى برهنة.

وفي كتابه "يوتوبيا" يخاطب الكاردينال فيقول: «إنّ أغنامكم التي اعتادت أن تكون أليفة معتدلة الطعام... أصبحت شرهة مفترسة، تلتهم الرجال أنفسهم وتد عر حقولا ومنازلا ومدنا بأكملها وتلتهم سكانها...» [3].

---

[1] توماس مور، يوتوبيا، تر: (إنجل بطرس سمعان)، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ص131.

[2] المرجع نفسه، ص141.

[3] نفسه، ص79.

فمور يرفض الملكية الفردية في مدينة يوتوبيا، حيث أنّ الأنانية وتحقيق السعادة الفردية هي مبادئ المجتمعات غير اليوتوبية، حيث يشبه "مور" أصحاب الملكية الفردية بالأغنام التي تنهب أموال العمال الفقراء والقضاء على أصحاب الملكية الفردية هو نيل للعدالة والمساواة الإتوبية، فهو يبحث عن المجتمع الفاضل الذي يحمل قيمة أخلاقية، قيمة التسامح والتعايش بين الأديان يقول: «...فإنّ الجميع ما عدا هم من اليوتوبيين، بالرغم من اختلاف معتقداتهم، يتفقون معهم في هذا الشأن، وهو الإيمان بوجود كائن أعلى واحد خالق الكون كله ومدبره بحكمته ويدركونه جميعهم بلغة بلادهم [ميترا] إلّا أنّ نظراتهم تختلف من شخص لآخر...» [1].

فالمجتمع اليوتوبي في نظر "توماس مور" يستقبل اختلاف العقائد وهذا أمر عادي، أي معتقد مهما كان مثيرا للرفض أو الكره ، وهو يرى أنّ تربية وتكوين المواطن في جزيرة يوتوبيا مسألة ضرورية في بناء المجتمع المثالي، فتنشئته الأخلاقية ضرورية وبذلك يكون "مور" قد سعى لإيجاد عالم مثالي تحكمه العدالة والمساواة والقيم المثلى، فهو يطمح لإيجاد دولة مثالية أو خلق مجتمع يوتوبي، وهذا ما أكده من خلاله روايته "يوتوبيا" التي ترجم فيها مبادئ وأسس الفكر اليوتوبي الذي طمح لتحقيقه في مجتمع إنجلترا خاصة وأوربا بصفة عامة.

4.2/ توماسو كامبنيلا (Tommasso Campanelle):

يعتبر الإيطالي "توماسو كامبنيلا" من أبرز كتاب الأدب اليوتوبي، حيث ألف كتاب "مدينة الشمس" (The City of Sun) والذي يعد من أهم الكتب التي بينت الفكر اليوتوبي بعد كتاب "يوتوبيا" لـ "توماس مور" في عصر النهضة، حيث يصف من خلاله مدينة الشمس وذلك عن حوار بين البحار والفارس، والحياة في هذه المدينة تخضع لقوانين ليس لها نظير على الكرة الأرضية، وهي بالتالي تحقق التصور الذي يتخيله لمدينة فاضلة ومجتمع مثالي فيوتوبية كامبنيلا قد تميّزت بتفردها عن اليوتوبيات السابقة ، كونها تعتمد وتقوم على العلوم التي تساهم في تطورها وتحقيق الازدهار الداخلي لها، وتؤثر بصفة كبيرة على الجانب السياسي والاقتصادي

[1] توماس مور، يوتوبيا ، ص208.

والاجتماعي لمدينة الشمس، حيث أنّ دراسة هذه العلوم تحتل مكانة مهمة وعالية في مجتمع مدينة الشمس «يتعلم كل فرد جميع أنواع الفنون، وبعد بلوغ الثالثة من العمر يتعلم الأطفال اللغة وحروف الأبجدية بالمشي حول الحوائط في أربع صفوف (...) وبعد سن السابعة يتلقى الأطفال دروسا في العلوم الطبيعية وعندما يصبحون كبار السن يدرسون الرياضيات والطب وغيرهما من العلوم...» [1].

وبذلك دعا كامبنيلا إلى تصور مدينة مثالية أساسها العلم والمعرفة، اللذان يجعلان من مجتمعها مجتمعا متفردا بالمثالية اللامحدودة، حيث أنّ كامبنيلا قد أعلى من شأن العقل وأخذ بمبادئ العلم والإيمان اللامحدود بأنّ التقدم يكون من خلاله، وبه تتحقق السعادة المدنية ويسعى "توماسو كامبنيلا" إلى تكوين مجتمع تحكمه العدالة والمساواة ويظهر ذلك جليا من خلال قوله: «ويقول الناس في "مدينة الشمس" إنّ الفقر يخلص اللصوص والدهاء والكذابين والمشردين وإنّ الثورة تخلق الغرور والجهل والطغاة، ولكن أفراد المجتمع الحق ينشأون من الغنى والفقر معا فهم أغنياء لا يريدون شيئا، فقراء لا يملكون شيئا، ونتيجة ذلك أنهم ليسوا عبيدا للظروف وإنّما الظروف هي التي تخدمهم» [2].

حيث أنّ "كامبنيلا" يبرز من خلال هذا القول التنظيم الاجتماعي لمدينته اليوتوبية، فجميع أفراد المجتمع يعيشون في مساواة مطلقة ولا توجد ملكية خاصة ، وكل فرد ينال حقه بالتساوي وما يكفيه لتحقيق السعادة ويؤكد "كامبنيلا" أنّ الفقر هو ما يجلب الكذابين واللصوص ووجود طبقات غنية أخرى يزيد من فساد المجتمع ولا يحقق المثالية بداخله، فهو يرى بأنّ إزاحة الملكية الخاصة والتساوي بين الجميع في الأكل والشرب والملبس وفرص العمل هو ما سيقضي على فساد هذا المجتمع ويحقق السعادة والعدالة المثلى.

ويرى "كامبنيلا" أنّ حاكم مدينة الشمس يجب أن يكون شخصا فريدا ومتميزا لديه إطلاع واسع على التاريخ وعلى معرفة واسعة بكل الثقافات والعادات التي تخص الشعوب والمجتمعات، كما يجب أن يكون ملما

[1] ماريا لويزا بريتري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص132.

[2] عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1797م، ص378.

بكافة العلوم والمعارف ومختلف أنواع الفنون وعلى معرفة بكل اللغات، ويسمى هذا الحاكم "ميثافيزيقوس" أي الإمبراطور الروحي أو هو السلطة البابوية، ويساعد في الحكم ثلاثة حكام يمثلون القوة، المعرفة، الإرادة «إنّ الحاكم الكبير كاهن يدعونه "هو" وإن كان علينا أن نسميه "الميثافيزيقوس" (Metaphysic) وهو على رأس الجميع، يمسك بزمام الأمور الروحية والزمنية ويشرف على كل الأعمال ويضع كل القوانين باعتماده السلطة العليا»[1].

أعطى "كامبنيلا" لونا آخر للنظام السياسي في مدينته المثالية فمنصب الحاكم هو منصب خاص لا يمكن الحصول عليه ببساطة، فهو يشترط المعرفة المطلقة بكل المعارف والعلوم بل بكل المناصب العليا داخل المدينة،و تعطى صفة النبل للحاكم من خلال إلمامه بقدر كبير من المعارف، فقد سعى "كامبنيلا" إلى تجسيد مدينة خيالية مثالية يسودها الحب والعدالة والوئام والتكافل، حيث أنّ كل شيء بداخله يسير بطريقة مثالية، حيث تختفي النزعة الأنانية وحب التملك الفردي، بل الجميع متوافق على نبذ المصلحة الخاصة في سبيل المصطلحة العامة.

يمكن أن نعتبر مصطلح "الديستوبيا" الذي يصور به مدينة الفساد والخراب قد يبرز كرد فعل نقيض لمصطلح "اليوتوبيا" الذي يجسد المدينة الفاضلة المثالية والسعيدة، وقد انتشر ولقى رواجا كبيرا في مجال الأدب حيث أدرجه الأدباء والكتاب في أعمالهم الفنية وعبروا به عن واقع الشعوب المظلم، وتشترك اليوتوبيا مع الديستوبيا في كونهما عالمين خياليين يجسدان ثنائية التناقضات الصارخة التي وجدت منذ ظهور البشرية؛ فالجمال يقابله القبح والموت تقابله الحياة والنور يقابله الظلام والفساد والبؤس تقابله المثالية والسعادة.

3.مفهوم الديستوبيا:

تعني كلمة "ديستوبيا" المكان الكريه، وهي منقسمة إلى جزئيين (dys) بمعنى سيء والثاني (topia) وتعني المكان، وتعني الكلمة في أصلها اليوناني المكان الخبيث عكس اليوتوبيا التي تعني المكان المثالي.

[1] عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنس بلوخ، ص377.

«وقد استخدمت كلمة "ديستوبيا" لأول مرة في منتصف القرن الثامن عشر، استخدمها الفيلسوف الإنجليزي "جون ستيوارت ميل" في خطاب أمام البرلمان عام 1868م، ولم يشع الشكل الأدبي واستخدام الكلمة بوصفه حتى وقت لاحق في القرن العشرين» [1].

«وتعتمد "الديستوبيا" على الخيال فهي نقد غير مباشر للمجتمع والنظم المختلفة فأدب الديستوبيا يوجه سهام النقد الى المواقف في العالم الواقعي بإحالتها إلى سياق غير مألوف في عالم بالغ الخيال» [2].

وعليه فالديستوبيا مصطلح يراد به تصوير ونقل العالم الواقعي السوداوي في قالب خيالي يتنبأ بمستقبل متشائم مليء بالكآبة والسلبية.

«وتعرف الديستوبيا كذلك بمصطلح "اليوتوبيا المضادة" (anti utopia) والتي تهدف في خططها الروائية إلى نقد التبعات السلبية الكامنة وراء الانصياع لصيغ بعينها من الأفكار المثالية، وتميل الروايات الخيالية عن المدن الفاسدة إلى تضمين بعد نقدي لاذع يرمي إلى التحذير من العواقب المحتملة لتوجيهات معينة في عالم الواقع»[3].

وعليه يمكن القول بأنّ الديستوبيا" مفهوم فلسفي يقوم على السخرية والتهكم ونقد الواقع من خلال تجسيده في صورة مدينة خيالية تعكس الفساد والخراب واللاإنسانية التي تمس العالم الحقيقي الذي ينتمي إليه المبدع.

وقد التصق مصطلح الديستوبيا بالمدينة أو المجتمع الفاسد والمخرب فتعددت تسميات هذه المدن أو المجتمعات من مثل: «المدينة الفاسدة، المدينة الفاسقة وهي التي آراؤها الآراء الفاضلة، وهي التي تعلم السعادة والله عز وجل والثواني والعقل الفعال وكل شيء سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدونه ولكن تكون أفعال أهلها أفعال المدن الجاهلة» [4].

---

[1] إيمان تاور سارجنت، اليوتوبية مقدمة قصيرة جدا، تر: (ضياء وراد)، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016م، ص33.

[2] آن ماري توماس، كيث بوكر، المرجع في روايات الخيال العلمي، تر: (عاطف يوسف محمود)، المركز القومي، القاهرة، 2010م، ص128.

[3] المرجع نفسه، ص127.

[4] أبو نصر محمد الفرابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، ص80.

ومعنى هذا أن مجتمع المدينة الفاسقة هو مجتمع مدرك لقيم ومبادئ المدينة الفاضلة، لكن أفعاله تكون مخالفة ومناقضة لأفعال المجتمع المثالي ومقوماته.

المدينة المبدلة «وهي التي كانت آراؤها وأفعالها آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنّها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك واستحالت أفعالها إلى غير تلك» [1]، وعليه يمكن القول بأنّ المدينة المبدلة هي تلك المدينة التي قام أهلها باستبدال مبادئ أهل المدينة الفاضلة بمبادئ منافية لها بسبب ظروف حتمية.

1.3.أشهر الأعمال الأدبية التي تناولت الفكر الديستوبي:

هناك مجموعة من الأعمال الأدبية التي أسست للفكر الديستوبي في العالم ولعل من أبرزها:

الأعمال الفنية لـ"جورج أورويل" والتي تعد الانطلاقة الفعلية للأدب الديستوبي، وقد أثرت بشكل كبير في الساحة الأدبية وتم اعتبارها النموذج الأمثل في التعبير عن المدينة الفاسدة، وتعتبر روايته 1984 التي ألفها عام 1984م من الروايات الديستوبية بامتياز، حيث جسد فيها "أورويل" مفهوم الفكر الديستوبي وأبعاده وتناول فيها باهتمام كل الأفكار المحورية المصاحبة للرواية الديستوبية الخيالية وهذه الأفكار عبارة عن «تصور للأوضاع القاسية في بريطانيا بعد الحرب مباشرة في ظل نظام حكم متوحش يعكس أصداء النازية إلى جانب الستالينية الروسية من خلال جهاز استخبارات الدولة وعملية التزييف اللانهائية للتاريخ الرسمي» [2].

وقد عبر عن ثلاث طبقات في المجتمع الطبقة العليا والوسطى والدنيا «وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية حملت أسماء مختلفة لا حصر لها ولا عدد (...) وأهداف هذه الطبقات كانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقات العليا البقاء حيث هي، وهدف الطبقة الوسطى هو

[1] أبو نصر محمد الفرابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها ، ص80.

[2] آن ماري توماس، كيث بوكر، المرجع في روايات الخيال العلمي، ص127.

الحلول مثل الطبقة العليا أما هدف الطبقة الدنيا... أنها تعيش محقوقة تحت وطأة مطالب الحياة اليومية فلا تعي شيئا خارجها» [1].

ويمكن القول بأنّ "جورج أورويل" قد صور من خلال روايته انعكاس الحكم السياسي على الوضع الاقتصادي الذي ولد نوع من الصراع الطبقي، وأصبحت رواية 1984 نموذجا لأنظمة الحكم الشمولية الاستبدادية، ومن أشهر كذلك الروايات الدستورية لجورج أورويل "مزرعة الحيوان" التي نشرها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيث أنّه وصف من خلالها النظام الشمولي وكيفية اشتعال الثورة ضد الأنظمة والحكومات من خلال مزرعة خيالية جميع أبطالها من عالم الحيوان وهي تصوير فعلي لعالم مظلم يسوده حكم ديكتاتوري اشتراكي شيوعي، وتصور الواقع الاجتماعي والسياسي المرير.

وتعتبر كذلك رواية عالم جديد شجاع للكاتب "ألدوس هكسلي" التي ألّفها عام 1932م من الروايات التي كان لها الأثر الكبير في السرد الروائي الديستوبي وهي «لا تتنبأ بنهاية الرأس مالية، ولكن بالانتصار النهائي للإنسانية أي تجريد البشر من شخصياتهم الإنسانية فترسم الرواية لوحة لمجتمع مستقبلي (...) وللتركيز على المسارات في مجتمع هكسلي المستقبلي يخفي وراءه افتقادا متأصلا للحرية الفردية، فالهدف من الجنس والعقاقير وأنواع الترفيه الدارجة في هذا المجتمع قبل كل شيء هو صرف الاهتمام عن المشاكل ومنع الأفراد من ترقية المشاعر القوية التي تؤدي بهم إلى تحدي السلطات الرسمية» [2].

ومن هنا يمكن القول بأنّ "هسكلي" ركز في هذه الرواية على مجموعة من العناصر والمظاهر الديستوبية منها: «التوحيد القياسي داخل المجتمع عن طريق إقرار زي موحد للأفراد وكذلك الذهنية الموحدة ،والشعب لا

[1] جورج أورويل، 1984، تر: (أنور الشامي)، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2013م، ص237.

[2] ديفيد سيد، الخيال العلمي، تر: (نفين عبد الرؤوف)، ط1، مؤسسة هنداوي، 2012م، ص81.

يهتم بالسياسة وإنّما يقبلون على كل ما يقدم لهم مثل تناول مخدر السوما، الزواج الأحادي أصبح أمر مستهجن والشذوذ الجنسي هو الأساس » [1].

ويمكن اعتبار تصور هكسلي للمستقبل واستقرائه له أصبح معيارا أساسيا للديستوبيات، وقد قدم في روايته خصائص تتميز بها المدينة الفاسدة في أدب الخيال العلمي.

ولقد تم خلال القرن العشر ين إصدار مجموعة من الروايات الديستوبية «التي صورت توجه الدول نحو استغلال الرغبة في الالتزام بالمعتقدات التقليدية من أجل محو الفردية ويجمع جيمس أونيل في روايته (أرض تحت إنجلترا 1935م) بين نمط الأرض المجوفة التي تنعكس في النباتات والحيوانات العجيبة ونمط المدينة الفاسدة الذي يطرح مغزى أخلاقي يتعلق بالهستيريا العامة المثارة حول العرق حسب وصفه» [2].

فجيمس أونيل قد حاول من خلال روايته (أرض تحت إنجلترا) أن يصور لنا عالم الفساد الذي قد تولد من خلال فكرة العنصرية والانشقاق العرقي.

«وتتبع "كاثرين بيردكين" خطى "أونيل" في تصوير عقلية الحشود في روايتها "ليلة الصليب المعقوف" لكنها تركز على مفهوم النوع الاجتماعي وتصور الرواية الإمبراطورية الألمانية المقدسة (...) وتعرض الكاتبة ببراعة التلاقي بين الصوفية والوثنية الذي يؤدي إلى إضفاء طابع ديني على القمع الكامل للنساء واختزالهن في دور آلات الإنجاب»[3].

والكاتبة في هذه الرواية قد جسدت مظاهر السرد الديستوبي وأبعاده الفكرية، والتي تتمثل في انعكاس الدين على مجتمعات الإمبراطورية الألمانية المقدسة التي غرقت في الفساد.

---

[1] ديفيد سيد، الخيال العلمي ، ص380.

[2] المرجع نفسه، ص80.

[3] نفسه، ص81.

أمّا فيما يخص التجربة العربية في السرد الديستوبي، فنجد بأنّ الكتاب العرب قد تبنوه بقوة، وذلك لأنّ الأفكار الديستوبية تجسد الواقع الذي تعيشه المجتمعات العربية في ظل السيطرة الديكتاتورية وقمع الحريات وتكريس الطبقية وتنويم الشعوب وغرس التخلف فيهم وجعلهم نموذج عبثي لا يدرك مصيره أو وجوده ومحو قيمهم فكانت مدينة الفساد هي العالم الخيالي الذي احتوى كل هذه الظروف وجسدها في أبعد نقطة «وان ازدياد الروايات الديستوبية يشير إلى أنّ أدب الديستوبيا اقترب من أن يكون ظاهرة عربية بامتياز وبالرغم من أنّ هذا الأدب قديم إلى حد ما في الغرب إلّا أنّه يعتبر حديث في العالم العربي» [1].

ولعل أبرز كتب في الأدب الديستوبي "محمد ربيع" من خلال روايته "عطارد" وهي رواية سوداوية بامتياز يبرز فيها مناخ الكآبة والحزن؛ وذلك بدءًا بعنوانها وعطارد أقرب كوكب إلى الشمس وهو اسم البطل ليمثل هذا الاسم دلالة جهنم والعذاب المتواصل الذي لا ينتهي، وهي تحمل مجموعة من الكلمات التي تصنفها في مجال أدب الديستوبيا (العبث، العدمية، الفوضى، القتل، الدم، الدعارة، الأخلاق، اللامبالاة، الرغبة في الموت، الجحيم...)؛ فكل مبادئ الفكر الديستوبي تم ترسيخها في هذه الرواية فهي تحمل نقدا لاذعا لواقع الشعوب العربية الكئيب والمظلم[2].

ويعتبر "أحمد خالد توفيق" من أبرز الذين كتبوا في الخيال العلمي وخاصة الديستوبيا، حيث كانت روايته "ممر الفئران" تسير في خطين مدينة واقعية ومدينة خيالية ديستوبية تماما، كما صور فيها التساؤلات الوجودية وصراع الشخصية مع ذاتها والواقع الذي تعيش فيه، وقد بين الكاتب رؤيته في هذه الرواية في مقدمتها عندما قال: «لعل السبب الذي دفعني لهذه المعالجة هو أنّ الفكرة بدت لي في رمزيتها ملامسة للواقع السياسي الذي تحياه

[1] فاطمة بريجكاني، الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة، قراءة في رواية أورويل في الضفة الجنوبية لفوزي دبيان، 2018م، ص832.

[2] ينظر، أسماء إبراهيم حسين شنقار، الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها، ولغتها) ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، قسم اللغة العربية بكلية التربية، جامعة دمنهور، العدد الخامس، 2020م، ص70.

شعوبنا العربية حاليا في مخاضها نحو الحرية والقيم الإنسانية العالمية فهي بذلك تربة صالحة وملائمة لاستخدامها بشكل أكثر عمقا من أن تكون قصيرة ومقتضية» [1].

ومن خلال هذا التصريح لـ"أحمد خالد توفيق" يتضح الموضوع الذي اختاره لروايته وأهدافها والإيديولوجية التي تهتم بالمجتمع وقضاياه، فهو قد صور معاناة المجتمع وظروفه من خلال مدينة خيالية ديستوبية، ألقى ببطلها "الشرقاوي" في ممر في عالم خيالي أسماه "بممر الفئران" والذي وجد نفسه فيه هائما ومغتربا عن نفسه وعن مجتمعه، ومن هنا ينطلق الكاتب إلى عالم آخر وبعد آخر لتصبح المشاكل الوجودية صغيرة ولا أهمية لها مقارنة مع عالم سوداوي وعالم مظلم، وقد مزج "أحمد خالد توفيق" في عمله هذا بين أدب نهاية العالم وأدب المدينة الفاسدة وهي عناصر متشابكة فكل عنصر يؤدي بالضرورة لآخر، فذلك الواقع المرير الذي يعيشه الإنسان العربي هو عالم ديستوبي بالدرجة الأولى، وهذا العالم الفاسد يتحول تدريجيا إلى خراب ونهاية.[2]

[1] أحمد خالد توفيق، ممر الفئران، الكرمة للنشر، القاهرة، 2016م، ص05.

[2] ينظر، أسماء إبراهيم حسين شنقار، الرواية الدستورية المصرية (مظاهرها، ولغتها)، ص61.

1 _دراسة نفسية للشخصية اليوتوبية والديستوبية انطلاقا من الرواية

الفصل الأول: الدلالات النفسية للشخصية اليوتوبية والديستوبية

استطاع "أحمد خالد توفيق" في روايته أن يعطي لنا صورة واضحة عن الفكر اليوتوبي والديستوبي من خلال مجموعة من العناصر ولعل من أبرزها الشخصية والتي تلعب الدور الكبير في بناء العمل الروائي وتحمل في طياتها مغازي وأهداف، فهي ليست مجرد عنصر مكمل في السرد الروائي وإنّما هي ركن من الأركان الأساسية التي ينسج بها الروائي عمله، ويمرر من خلالها أفكاره وثقافته وواقعه الاجتماعي والسياسي الذي يعيشه، كما يعكس لنا من خلالها الأحوال النفسية والصراعات الداخلية بين الشعورو اللّاشعور ومحاولة مواجهة الآخر بحثا عن الهوية وإثبات الذات.

فللشخصية أهمية كبيرة في الرواية باعتبار أنّها الواقع والمتخيل في آن؛ فالرواية كجنس أدبي يعتبر الخيال عنصرا مهمينا فيها لكن هذا لا يجعلها تتملص من انتماء كاتبها إلى واقعه المعاش ونقله من خلال شخصياتها.

1. مفهوم الشخصية:

أ. لغة

تعدد المفهوم اللغوي للشخصية بتعدد المعاجم ولعل أبرزها لسان العرب لابن منظور حيث ورد هذا المصطلح ضمن مادة (ش، خ، ص) «الشخص: جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر والجمع أشخاص وشخوص وشخصاص، الشخص: سواء الإنسان وغيره نراه من بعيد ونقول ثلاثة أشخاص وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه» [1].

كما ورد المصطلح في المعجم الوسيط: «إنها صفات تميز الشخص عن غيره ويقال: فلان ذو شخصية قوية ذو صفات متميزة وإرادة وكيان مستقل» [2].

---

[1] أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، المجلد 7، ط1، دار صادرر، بيروت، لبنان، 1997م، مادة (ش، خ، ص)، ص45.

[2] إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، تركيا، ص475.

وعليه فمفهوم الشخصية حسب هذين التعريفين ينحصر في السمات والمميزات الداخلية والخارجية للشخص والتي تميزه وتفرده عن غيره.

وجاء في قاموس المحيط "للفيروز أبادي": «ارتفع عن الهدف وشخص بصوته لا يقدر على خفضه وشخص به أتاه أمر أقلقه» [1].

وقد اقترن لفظ الشخصية بالقرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ *فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ* أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾[2].

كما جاء في تاج العروس: «شخص الرجل شخاصة: فهو شخيص (بدن وصخم) ويقال شخص (بصره) فهو شاخص إذا (فتح عينه وجعل لا يطرف)»[3].

والملاحظ على التعاريف أنّها تشترك في نفس المعنى ألا وهو أن الشخصية هي صفات فسيولوجية وسيكولوجية يتميز بها الإنسان عن غيره.

وما يقابل هذه اللفظة في اللغة الانجليزية والمنحدرة من اللاّتينية نجد أنّ كلمة شخصية هي ترجمة لكلمة " personality"، حيث تعني القناع الذي يرتديه الممثلون اليونانيون في احتفالاتهم وتمثيلاتهم لإخفاء معالم شخصيتهم الحقيقية» [4].

فمصطلح الشخصية في بداية ظهوره ارتبط بالقناع الذي كان يرتديه الممثل فوق خشبة المسرح اليوناني القديم ليخفي ملامحه ويتقمص الدور المكلف به.

---

[1] فيروز أبادي، قاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، الأردن، ص243.

[2] الأنبياء، الآية 97.

[3] محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق حسين ناصر، ج18، مطبعة حكومة الكويت، 1969م، ص08.

[4] داوود حنا، الشخصية بين السواء والمرض، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1991م، ص07.

ب. اصطلاحا:

اختلفت التعاريف الاصطلاحية حول مفهوم الشخصية:

نجد الناقد "فيليب هامون" "Philippe Hamon" يعرفها: «إنّ الشخصية بناء يقوم الشخص بتشديده أكثر مما هي معيار مفروض من خارج النص» [1].

وعليه يمكننا القول بأنّ الشخصية عنصرا مهما في بناء النص الروائي وإن كانت تحمل صفة الإنسانية فهي ترتبط بالجانب التخيلي أكثر من الواقعي.

ويمكن أن نربط الشخصية بالأفكار والإيديولوجيات الخاصة بالروائي فهي تعد صورة عاكسة لها، وهذا ما نلحظه في تعريف "عبد المالك مرتاض": «تتعدد الشخصية الروائية بتعدد الأهواء والمذاهب والإيديولوجيات والحضارة والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود» [2].

كما عرّف "أحمد مرشد" الشخصية الروائية بأنّها: «أحد المكونات الحكائية التي تساهم في تشكيل بنية النص الروائي حيث يحاول منجز النص أسبلة اللغة وفق نسق مميز مقاربة الإنسان الواقعي وهذا لا يعني أن الشخصية هي الإنسان كما نراه في الواقع المرئي لأنّها توجد للبعدين الإنساني والأدبي فهي صورة تخييلية استمدت وجودها من مكان وزمان معينين» [3].

ومن هنا يمكننا القول بأنّ الشخصية هي عبارة عن رؤية تخييلية يوظفها الكاتب داخل النص الروائي، فهي تحي في مكان وزمان خياليين وذلك بغرض إيصال من خلالها فكرة ما للمتلقي.

---

[1] فيليب هامون، سيميولوجيات الشخصية الروائية، تر: (سعيد بن كراد)، دار الحوار، سوريا، 2013م، ص51.

[2] عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، 1998م، ص37.

[3] أحمد مرشد، البنية والدلالة في الرواية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م، ص35.

ج. في علم النفس:

على الرغم من أنّ للشخصية مفهوم شائع لدى المتخصصين إلّا أنّ دلالتها تختلف من علم لآخر، حيث نجدها في علم الاجتماع والأنثربولوجيا والأدب وعلم النفس ويعد هذا الأخير من أهم العلوم التي أخذتها بالدراسة وأولتها أهمية كبيرة فمآجت التعاريف واختلفت من عالم لآخر.

فيعرفها عالم النفس: "مورتن برنس" "Morton Prince" : هي «مجموع ما لدى الفرد من استعدادات ودوافع ونزاعات وشهوات وغرائز فطرية وبيولوجية، كذلك ما لديه من نزعات واستعدادات مكتسبة» [1].

فمورتن يربط الشخصية بالجانب الفطري للإنسان الذي يقبع بداخله منذ ولد، والجانب الخارجي الذي اكتسبه من خلال احتكاكه بالمحيط الخارجي، وكل هذه العوامل تفرز لنا ما يصطلح عليه بالشخصية.

ونلحظ الرؤية ذاتها عند العلم "هانز آيزنك" "Hans Eysenck" : الذي يرى بأنّ الشخصية هي ذلك التنظيم الثابت المستمر نسبيا لخلق الشخص ومزاجه وعقله وجسده. [2]

فالشخصية حسبه هي مجموعة التركيبات التي تحتوي على مجموعة من السمات من خلالها يمكن الكشف عن بنية الفرد بمختلف أبعادها.

ويرى "سيغموند فرويد" " Sigmund Freud": بأنّ الشخصية هي تكامل الهو والأنا والأنا الأعلى وحسب رأيه هي ضرورة تحليلية وعليه إنّ التفتيش في تاريخ الليبدو عن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى التصرف على هذا النحو[3].

---

[1] محمد شحاتة ربيع، علم نفس الشخصية، ط1، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2013م، ص32.

[2] كارل ألبرت، أنماط الشخصية أسرار وخفايا، تر: (حسين حمزة)، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2014م، ص12.

[3] المرجع نفسه، ص31.

ونجد بأنّ مفهوم الشخصية حسب "فرويد" يقوم على التحليل النفسي وعلى المكونات الأساسية للشخصية المتمثلة في الأنا وهو الشعور والإدراك الذي يسعى إلى الدفاع عن الشخصية، الهو وهو الشعور الغريزي اللاواعي الذي يحقق اللذة ويتعدى على كل القيم والعادات ويتجاوزها.

أما الأنا الأعلى فهو مجمل القيم والمثل العليا وهو يكبح جموح الهو، وقد تجمعه عادات وتقاليد وأعراف المجتمع بالإضافة إلى الدين بأوامره ونواهيه.

وتميل معظم الدراسات النفسية إلى تعريف الشخصية بأنّها: «جملة من الصفات الجسدية والنفسية (موروثة أو مكتسبة) والعادات والتقاليد والقيم والعواطف، متفاعلة كما يراها الآخرون من خلال التعامل في الحياة الاجتماعية» [1].

ذوهذا ما أكده عالم النفس "جوردون ألبورث" "Gordon Allport" عندما عرف الشخصية: «هي ذلك التنظيم الثابت الديناميكي في نفس الفرد لتلك المنظومات الجسمية النفسية التي تحدد أشكال التكيف الخاصة لديه مع البيئة» [2].

وهذان التعريفان يتمحوران في رؤية واحدة وهي حصر الشخصية في جملة من الخصائص النفسية والجسمية التي تميز الفرد في بيئته وتكيفه مع مجتمعه.

2.أنماط الشخصيات اليوتوبية:

أ. شخصية علاء:

وهي شخصية مركزية في الرواية باعتبار أنّها المحرك الأساسي للأحداث فيها، وقد استطاع الكاتب أن يعطيها صورة مختلفة عن باقي الشخصيات، حيث أنّها تعد من أكثر الشخصيات ترجمة للفكر اليوتوبي الذي يعتبر انعكاسا للواقع الاجتماعي والنفسي الذي تعيشه، وهو شاب من مدينة "يوتوبيا" لم يذكر الكاتب اسمه في الجزء

[1] كارل ألبرت، أنماط الشخصية أسرار وخفايا، ص11.

[2] المرجع نفسه، ص12.

الأول من العمل لكنه ذكر الحياة التي يحظى بها داخل المجتمع الذي ينتمي إليه، وقد عبر الكاتب عن نقطة تجاهل الاسم أو أن الأسماء قد أصبحت لا قيمة لها في مجتمع ألغيت فيه الأسماء لأنّ الناس فيه يعيشون حياة واحدة وروتينا واحدا، وهي حياة الترف المثالية وفي ذلك يقول الكاتب: «من أنا؟.. دعنا من الأسماء.. ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي أحد آخر» [1]، والكاتب يلفت الانتباه لظاهرة قد شاعت في المجتمعات اليوتوبية وهي ذوبان الأنا أي انصهار ضمير المفرد داخل ضمير الجماعة، هذه الأخيرة التي تمتلك نفس الصفات في عالمها المثالي، فهناك مساواة في فرص الحياة ويمتلكون جميعا كل ما يرتبط بعلو الشأن والمكانة المرموقة، فلا أحد يستطيع أن يفرق بين ابن هذا وابن ذاك، فهم نسخة واحدة في مجتمع واحد يعرفون بطبقة النبلاء.

وقد أعطى الكاتب لهذه الشخصية اسما في الجزء الثالث "علاء" وعنون كلا من الجزء (الأول، الثالث الخامس) بالصياد وهو إشارة لشخصية "علاء" وتجربة الصيد الذي قام بها، وهو ابن رجل أعمال كبير يسمى "مراد" وأمه تدعى "لارين" وقد منحا له حياة الترف والرفاهية دون قيود.

ولعل الشيء الوحيد الذي يميز علاء عن باقي مراهقي "يوتوبيا" هو أنّه يعيش نوعا من الشذوذ في التفكير، فهو الشاب الوحيد في يوتوبيا الذي كان يقرأ الكتب ويتفوق على أقرانه في ذلك، ولكن هدفه من قراءة هته الكتب هو كسر الروتين الخانق والممل الذي يعيشه وتضييع الوقت دون إعارة أي اهتمام لفحواها، فاللاوعي هو القوة المحركة لكل تصرفاته يقول: «إنّ القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات، لا أفعل بها شيئا سوى الغياب عن الوعي» [2]، فهو من خلالها يخرج من التجانس الرهيب الذي يعيشه أو هي على الأقل المخدر الذي يوهمه بذلك.

---

[1] أحمد خالد توفيق، يوتوبيا، ط1، دار ميريت، القاهرة، 2008م، ص15.

[2] المصدر نفسه، ص15.

ويمكن القول بأن الكاتب قد صور من خلال شخصية "علاء" عقلية ونمط تفكير شباب مدينة "يوتوبيا"، الذين يمتلكون جل وسائل التسلية والرفاهية ويتمتعون بكل شيء دون قيود ويأكلون أطيب الأطعمة ويضاجعون ما يحلو لهم من الفتيات ويتعاطون كافة أنواع المخدرات.

ويمتلك "علاء" في عالمه معظم وسائل المتعة والرفاهية ويقوم بأي شيء دون مبالاة، فالاضطرابات اللّاشعورية التي يعيشها دفعت به للقيام بسلوكات شاذة ومعادية للقيم الإنسانية يقول: «أصحو من النوم.. أفرغ مثانتي.. أدخن.. أشرب القهوة.. أحلق ذقني.. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعا.. أضاجع الخادمة الإفريقية.. أتناول الإفطار.. أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة.. ألقي الخليط المقزز في القمامة.. أتثاءب.. أضحك.. أبصق.. ألتهم اللحم الأحمر.. أدس أصبعي في حلقي.. أدخل غرفة نوم "لارين" لأفرغ ما بمعدتي على البساط.. أضحك...» [1].

ويكمل الكاتب تصوير السلوكات الاضطرابية التي تبنتها هذه الشخصية في حياتها اليومية والتي كانت انعكاسا للنعيم المترف الذي تعيشه يقول: «أدس أصبعي في أذني.. آخذ زجاجة وسكي من البار وأجرع منها.. أرقص..أترنح.. أقف فوق أريكة.. أتقلب على البساط.. أقرأ الجريدة التي لا تزيد عن اجتماعيات يوتوبيا» [2] فـ"علاء" يقضي جل أوقاته في البار يلهو ويفرط في الشرب والسكر والرقص بحثا عن المتعة غير محدودة، حيث يهدف للوصول إلى السعادة المطلقة من خلال إطلاقه العنان لمختلف غرائزه الفطرية لكنه في الأخير يصل إلى نوع من التشبع الذي يجعله يعيش حالة من الروتين، فهو قد جرب جميع أنواع المتعة ونمط الحياة الذي تبنته هذه الشخصية قد انعكس على تركيبتها النفسية وهذا ما جعلها تنتمي إلى نمط الشخصية السيكوباتية أو الشخصية المعادية للمجتمع (Antisocial personality Disorder) والتي تعرف بأنّها: «الشخصية التي يتميز صاحبها بعدم الاستطاعة على مقاومة أي إغراء وثورته على تقاليد المجتمع بل على كل شيء قصد إرضاء أنانية المفرطة والتي لا

[1] الرواية، ص26.

[2] المصدر نفسه، ص26-27.

يبالي معها بألم الآخرين» [1]. أي هي تلك الشخصية التي تتبنى نمط من السلوكات الخارجة عن قواعد المجتمع الإنساني.

وهذا ما نلحظه في شخصية "علاء" التي جربت كل أنواع الانحرافات الممكنة بغرض التسلية ولعل أهمها الإدمان على المخدرات ومضاجعة الفتيات بحثا عن المتعة غير محدودة، فالكاتب يصور من خلال هذه الشخصية حياة وتفكير فتيان مدينة "يوتوبيا" الذين يمتلكون كل مقومات ومتطلبات الحياة المثالية، وذلك بفضل انتمائهم لطبقة اجتماعية مرموقة توفر لهم جميع طلباتهم، وهذا ما دفع بهم إلى الانحراف وتعاطي مختلف أنواع العقاقير المخدرة حتى أغلى هذه الأنواع والتي يحصلون عليها من الحراس الأمريكيين ويظهر ذلك في قوله: «جربت عقاقير كثيرة جدا.. نبتاعها من الحراس الأمريكيين ولكن مشكلة المخدرات هي أنّها تفقد إثارتها ما دامت متاحة... »[2].

فشباب "يوتوبيا" يجدون الإثارة والمتعة في تعاطي المخدرات لكن هذه النشوة واللذة سرعان ما تزول ما دامت المخدرات يتم تناولها في "يوتوبيا" كما يتم تداول السجائر، فظاهرة التعاطي أصبحت مألوفة ومنتشرة جدا في مجتمعهم الذي لا يخضع للقيود والضوابط، أي أنّ كل شيء مباح في مجتمع أصبح التعاطي وممارسة الجنس من أولوياته ؛ فلا توجد فتاة أو شاب لم يتعاط المخدرات أو يمارس الجنس في حياته اليومية، فهم يتركون الغريزة تسير حياتهم دون وعي منهم أو إدراك للقيم الإنسانية المثلى يقول فتى"يوتوبيا": «ليست الأبوة عملا عظيما لهذا الحد.. بوسعي أن أكون أبا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة، ولأكونن لك شاكرا.. اليوم أخبرت "لارين" أنّ "سوزان" حبلى.. لقد صار هذا روتينيا في حياتنا» [3].

---

[1] أحمد عكاشة، علم النفس الفسيولوجي، ط5، دار المعارف، القاهرة، ص254.

[2] الرواية، ص17.

[3] المصدر نفسه، ص18.

فمن أجل أن يملأ شبان "يوتوبيا" الفراغ الذي يشعرون به ويعيشونه يلجأون للجنس وتعاطي المخدرات كنوع من التنفس عن أحوالهم وكرد فعل عن واقعهم المعاش والعبثي.

ومما تقدم يمكن القول بأنّ "أحمد خالد توفيق" قد صور لنا المكانة العليا التي حصل عليها مراهقو "يوتوبيا" من خلال شخصية "علاء" والتي تعد مثالا صريحا للمثالية التي يعيشونها، حيث انعكست على حياتهم النفسية، فبالرغم بكل ما توفر لهم "يوتوبيا" من رفاهية وثراء فاحش وتحقيق ما يحلمون به إلّا أنّهم يشعرون باليأس والإحباط والملل القاتل، وذلك راجع لعدم قناعتهم بذواتهم وسعيهم نحو الكمال فيصطدمون بواقعهم الصناعي يقول "علاء": «وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية؟ تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يرهق الطعام أنفاسك.. تتقيأ حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل.. تمارس الجنس من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيا ساديا» [1]، هذه الجنة الصناعية أدخلتهم في حالة غيبوبة وسكر عن العالم الواقعي وأفقدتهم الرغبة في الاستمتاع بكل شيء، حيث أنّ الطعام أصبح لا مذاق له كونه متوفر وبكميات لا حدود لها والجنس أصبح مجرد شهوة حيوانية بجريرة العنف وكسر القواعد الأخلاقية.

ومن أهم الأشياء التي كان يقوم بها "علاء" في مدينة "يوتوبيا" سماع أغاني الأورجازم؛ هي إحدى أنواع الموسيقى الصاخبة التي تدخله في دوامة من الإثارة وتفقده الإحساس بالعالم الخارجي يقول الكاتب في مقطع من أغاني الأورجازم:

-عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين..

-عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول..

-عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم، وتمارس سندريلا البغاء

-عندما يعلن بعلزبول أنّ الحين قد حان..

[1] الرواية، ص19.

-عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحا. . .

و أموت...[1]

وهذه الأغاني تجعل من شخصية "علاء" شخصية متصلبة وعدوانية تميل إلى العنف، وقد تتجاوز العنف اللفظي إلى العنف الجسدي والذي قد يصل إلى القتل دون الشعور بتأنيب الضمير أو الانزعاج لذلك فهو شخصية سيكوباتية بالدرجة الأولى.

فالكلمات التي يسمعها "علاء" في أغاني الأورجازم ويتبرمج عليها عقله اللّاواعي تتسبب له في حالة من الاعتداء وتدفع به لممارسته في أي موقف يتعرض له أو يرغب في تجريبه، حيث أنّه قد اختار أن يخوض تجربة صيد البشر بحثا عن الإثارة والمتعة يقول: «الموت.. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد...» [2]، فـ"علاء" يتعطش لتجربة قتل الأغيار المغايرة لكل ما ألفه وعرفه في عالمه الذي قد قتلت فيه المتعة وحل محلها الملل الذي يشعره بالغثيان لذلك يريد الاقتراب من طعم الموت ليشعر بالنشوة واللذة وكل ذلك ضمن عبثية لا حدود لها يقول:

«الإثارة..

الإثم..

التعدي..

خرق القواعد..

التحدي..

كسر التابو..

المشاغبة..

المخالفة..

---

[1] الرواية، ص30.

[2] المصدر نفسه، ص13.

الهدم..

التوتر..

الأدرينالين..

التغيير..

التمرد..

الانحلال..

الصدمة..

التميز..

الدهشة..

هذا هو اسم اللعبة[1].

فالواقع الذي يعيشه "علاء" في مدينة "يوتوبيا" المثالية قد أدخله في حالة لا شعورية تسودها الانفعالات والحيرة والتوتر، مما دفع به إلى تبني سلوكات عدوانية مصحوبة بتوهمات عقلية، أي أنه يتطلع لتجربة الصيد في عالم الأغيار والتي قد تؤدي بحياته لكنه يقدم عليها رغبة منه في تذوق نيران الإثارة التي تذكي فيه الحماس حتى لو ضحى بكل ما يملك من رفاهية وغنا وبذخ فهو لا يهتم لذلك ويصور الكاتب الحالة النفسية التي آل إليها "علاء" من خلال الأسئلة التي طرحتها عليه والدته وجوابه عليها تقول: «هل ينقصك شيء؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري "يوتوبيا" كلها لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف ليلة وليلة»[2].

[1] الرواية ، ص24-25.

[2] المصدر نفسه، ص28.

رغم ما يملكه من ثراء كثراء الملوك وسلاطين ألف ليلة وليلة فهو قد اكتفى من كل هذا ويريد شيئا جديدا لم يجربه من قبل ويظهر ذلك من خلال إجابته عندما قال: «المشكلة كل هذا.. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه.. ولم أظفر به...» [1].

وبهذا الجواب يؤكد "علاء" لوالدته أنّه قد سئم من كل شيء ويريد شيئا مثيرا لم يتعود عليه، وقد حان وقت الدخول في لعبة صيد البشر التي قد كان يسمع عنها من أصدقائه ومدى متعتهم بخوض غمارها.ذ

ومن هنا يمكن القول بأن الكاتب قد أعطى لنا لمحة عن حقيقة موت المشاعر والأحاسيس في قلوب شباب مدينة "يوتوبيا"، فهم أصبحوا مجرد آلات تسيرها الغرائز الفطرية وقوة اللّاوعي التي تدفع بهم للقيام بسلوكات انحرافية لا إنسانية وعلى رأسها القتل فـ"علاء" ينظر للقتل على أنّه لعبة يفرغ بها شحنات الطاقة السلبية التي تتملكه ويعيشها في عالمه السامي ويرغب في تحطيم الروتين المقرف الذي يحياه في مجتمعه الغني.

وفي الأخير ومما سلف يمكن القول بأنّ "أحمد خالد توفيق" قد جسد لنا من خلال شخصية "علاء" الاضطرابات النفسية التي يعيشها أفراد المجتمع الرأس مالي المثالي الذي قد جرد أفراده من المشاعر والقيم الأخلاقية، كما برمجت عقولهم على البراغماتية وهذا ما أنتج مجتمعا آليا تحكمه المظاهر الصناعية والمصالح الشخصية، وقد انعكس كل ذلك على أحوالهم النفسية وأحدث خللا في الموازنة بين عالمهم المادي وعالمهم النفسي الروحي.

ب. شخصيتا "مراد بك" و"الحمزاوي بك":

يعيش معظم رجال "يوتوبيا" حالة من السيطرة والتملك، حيث يستولون على معظم ممتلكات "يوتوبيا" ويتحكمون في سيرورة قطاعها الاقتصادي؛ فهي تلك الجنة الصناعية التي أسسوها في خيالهم وجسدوها على أرض واقعهم وهذا ما جعلهم يمارسون السطوة والهيمنة بكل أنواعها، ويستبدون في تصرفاتهم مع الآخرين، فهم

[1] الرواية، ص28.

يحبون التباهي والتبجح والتفاخر والإشهار بذواتهم وبمراكزهم، وهذا ما جعلهم ينتمون إلى الشخصية النرجسية "Narcissism" والتي تعرف «بحب النفس وهو اضطراب في الشخصية حيث تتميز بالتعالي والشعور بالأهمية ومحاولة الكسب ولو على حساب الآخرين وهذه الكلمة نسبة إلى أسطورة يونانية (...) وتركز النرجسية على نزوة الحب في الذات بشكل يمنعها من رؤية ماعداها وسيحبها في حدودها في حالة من الفتنة والإعجاب ويؤدي إلى موتها وهو ليس الموت الجسدي طبعا بل حرمانها من العلاقات والتفاعل مع الغير باعتبارها أساس كل الوجود» [1] وينطبق هذا الاضطراب النفسي على شخصيتين أولهما:

- **مراد بك:**

وهو رجل أعمال كبير يمتلك سلطة ومكانة عالية في مجتمعه الرأس مالي، وهو والد "علاء" وزوج "لارين"، يمتلك معملا كبيرا للأدوية، هدفه الوحيد هو كيفية الاستزادة في ثروته وهذا ما دفع به إلى التملص من مسؤولياته كزوج وكرب أسرة، فهو لا يعير اهتماما كبيرا لعائلته بل يتعامل معها بطريقة سطحية، فهو يقصي كل ما له علاقة بالمشاعر ويتعامل بلغة المال يقول الكاتب: «وماذايهم ؟.. مراد هو الرجل الذي يصدر لي الأوامر لأرفضها ويعطيني المال.. لست مسئولا عن أخلاق أبي» [2]، فالكاتب من خلال هذا القول يبين لنا العلاقة التي تجمع "مراد بك" بابنه "علاء"، وهي علاقة مصلحة فصورة الأب التي تركها "مراد" في مخيلة "علاء" هي صورة الحصالة.

فمفهوم الواجب الأسري عند "مراد" يتمحور فقط في إعطاء المال لابنه أمّا الرقابة والاهتمام والتربية فهي أشياء سخيفة بالنسبة له.

وبما أنّ "مراد" يمتلك نفوذا كبيرا ويعيش في مثالية شديدة أصبح ينظر إلى المحيطين به نظرة دونية ويتعامل معهم بجفاء وبرود عاطفي وهذا ما يظهر من خلال علاقته بزوجته "لارين" التي أصابها الفتور لدرجة أنه أصبح لا يكن لها أي مشاعر، فامتلاكه للمال جعله يعيش حرية مطلقة خاصة منها الجنسية، بالرغم من أنّه رجل محصن

[1] عبد المنعم حنفي، الموسوعة الجنسية النفسية، ط2، 2001م، ص523.
[2] الرواية، ص47.

إلا أنّه يحب معاشرة النساء، حيث يرى بأنّه من حقه أن يتمتع ويشبع ويفرغ مكبوتاته الجنسية وغرائزه، ولا تهمه مكانة المرأة التي يضاجعها المهم هو بلوغه أوج مراحل الرضا الجنسي، ويبرز ذلك من خلال معاشرته لخادمة فقيرة من مدينة "الأغيار" ورغم حملها منه إلّا أنّه لم يعط قيمة للأمر يقول الكاتب على لسانها: «برغم هذا أنجبت منه.. لا يأتي العالم سوى الطفل الذي لا تريدينه وتدعين الله أن تزهق أنفاسه.. ابن الحرام فعلا.. كنت وحدي ساعة الولادة.. قطعت الحبل السري بسكين صدئة وجدتها جوار الفراش» [1].

ف"مراد بك" يعيش اللذة والغريزة اللتان استحوذتا عليه فهو لا يهمه ما إن حملت المرأة منه أو لا فهو يعيش اللحظة وفقط، أمّا ما يأتي بعد ذلك فهو غير مسؤول عنه .

أما الشخصية الثانية التي تتطابق معها صفات النرجسي شخصية:

- **الحمزاوي بك:**

وهو من أغنى رجال "يوتوبيا" رجل يبلغ من العمر ستين سنة، وهو شخصية في ظاهرها تحمل كل صفات العظمة والتقدير والنجاح والمكانة المرموقة، أما في باطنها فهو شخصية تحمل الكثير من الأسرار ةوالخبث فهو لا يتعاطف ولا يرحم الضعفاءو يرى بأنّه أكثر أهمية وعظمة من الجميع ويحق له أن يقوم بأي تصرف حتى ولو كان منحرفا؛ أي أنّه ذو شخصية انتهازية يسعى دائما لاستغلال الآخرين، ورغم أنّه رجل متزوج إلّا أنّه لا يكن احتراما لزوجته ويقوم بخيانتها مع الفتيات الجميلات ويجد متعته في ذلك يقول الروائي: «ابن الزانية ينام مع ثلاث فتيات كل يوم لكنه لم يلمس زوجته منذ عشرة أعوام» [2]، فرغم كبر سنه إلّا أنّه يستغل مكانته الاجتماعية في تحقيق مصالحه الشخصية وتلبية رغباته، حيث يقوم بإغراء الفتيات الفاتنات اللواتي يسترعين انتباهه بالمال فهو يخفي شخصيته الضعيفة ومشكلاته النفسية بهذه الطريقة وذلك لأنّه يعاني من "النرجسية الجنسية" والتي تعرف بأنّها «النقص في إحداث الإشباع العاطفي وذلك لما يتسم به المضطرب نرجسيا من انغلاق شديد حول ذاته

[1] الرواية، ص47.

[2] المصدر نفسه، ص45.

وشعوره بالتعاطف والود مع ذاته فقط، فبالتالي لا يمكنه إعطاء الآخر الحب والأهمية لأنه مفتقدها اتجاه الآخرين وتغلبه النزعة الاستغلالية النرجسية» [1].

أي أنّها اضطراب نفسي يتعلق بالانحراف والشذوذ الجنسي، و"الحمزاوي بك" يعاني من مجموعة من العقد النفسية دفعت به إلى ارتكاب سلوكات لا معقولة متنافية مع سنه ومكانته الاجتماعية، أي أنّه يتعامل كالمراهقين، حيث أنّه يرغب في عيش حياة جنسية مطولة ومفعمة بالنشاط رغم كبر سنه، وهذا ما دفعه إلى استخدام مجموعة من العقاقير والأدوية التي تجعله يستمتع ويحقق اللذة والسعادة يقول الكاتب: «يحب الشابات المليحات.. لديه جيش من الجواري.. ابن الزانية يضاجع ثلاث فتيات في فراش واحد أحيانا.. مع أنّه تجاوز الستين لكنه ما يأكلونه.. إنّ الإستاكوزا وذلك الدواء الجديد يأتيانه يوميا طازجين من فرنسا» [2].

ومما سبق نلحظ على شخصية "الحمزاوي بك" نوع من الوحشية في التعامل مع الآخرين، كما أنّه يستحقر الضعفاء من الأغيار ويتعدى عليهم لأنّه مهووس بذاته ويقدّسها ويقصي الآخر الذي يعتبر مجرد تابعا له وملبيا لرغباته ولا تهمه مكانته، ويصور ذلك الكاتب من خلال معاملته لإحدى الخادمات يقول: «المهم أنّ الخنزير انفرد بي لحظات، ثم أدار ظهره لي وقد زالت شهوته فأدرك كم أنا منفرة.. هكذا تقيأ وركلني بقدمه ركلات متتالية حتى ألقى بي من فوق السلم مثل تلك الأفلام القديمة...»[3].

من خلال هذا القول نستنتج بأنّ صورة المرأة لدى "الحمزاوي بك" متمثلة في الجسد فقط فهي بمثابة آلة يفرغ فيها مكنوناته وشهواته.

ومما عرضناه سابقا يمكن القول بأنّ الشخصية النرجسية قد تمثلت وبرزت بوضوح من خلال شخصيتي "مراد بك" و"الحمزاوي بك" ويظهر ذلك من خلال مجموعة من سمات الشخص النرجسي التي تطابقت

---

[1] عبد المنعم حنفي، مرجع سابق، ص527.

[2] الرواية، ص45.

[3] المصدر نفسه، ص46.

وسلوكياتهم وتصرفاتهم مع الطرف الآخر بطريقة عدوانية ومنحرفة، وكل ذلك منبطق من الصراعات اللّاشعورية التي تعيشها هته الشخصيات في داخلها، جراء المشكلات والحالات النفسية العويصة التي كونتها.

جسدت نفسية المرأة في المجتمع اليوتوبي عن طريق الصورة التي أعطاها لنا "أحمد خالد توفيق" عن كل من شخصية "لارين" و"جرمينال".

ج. شخصية لارين:

تمثل هذه الشخصية نموذجا صريحا لحياة النساء في "يوتوبيا" اللواتي يعشن حياة الرفاه والخير والترف، حيث أنّ المرأة في مدينة "يوتوبيا" تقضي جل أوقاتها في التسوق وإهدار الأموال بغير حدود ولا اهتمام، فهي تعاني من الضجر والملل وكل ما ترغب به تحصل عليه بسهولة مما يجعلها تعيش في حالة نفسية مضطربة يسودها نوعا من الفراغ الداخلي والذي تحاول ملأه عن طريق ارتكابها سلوكات غير واعية، ونلحظ ذلك في قول الكاتب: «في يوتوبيا مازالت الأم هي الأم لا يمكن التخلص منها (لارين) عائدة من المول حاملة عدة أكياس تحتوي على ما نحتاج له.. أشياء تأكل وتشرب وتدهن وتشم وتدهن تحت الإبط وتطلى بها الأظافر...» [1].

و"لارين" هي والدة "علاء" وزوجة "مراد بك" صاحب أكبر شركة دواء في "يوتوبيا"، وهي تلك الشخصية المكتئبة التي تعاني من البرود العاطفي وتحاول أن تكسر الروتين الذي تعيشه مع زوجها الذي أهملها وابتعد عنها فعلاقتهما فقدت عنصر الاهتمام منذ زمن طويل وذلك أدى بها إلى الدخول في حالة نفسية مزرية أفقدتها ثقتها بنفسها وتقديرها لذاتها، فخيانة زوجها وقلة احترام ابنها تاركا فيها أثرا نفسيا بليغا حيث أصبحت تعاني من الحزن العميق والإحباط وفقدان السعادة وطعم الحياة، ويعرف الاكتئاب (Depression)بأنّه: «موقف عاطفي أو اتجاه

[1] الرواية، ص27.

انفعالي يتخذ في بعض الأحيان شكل مرضي واضح وينطوي على الشعور بالقصور وعدم الكفاية واليأس حيث يطغى هذا الشعور على المرء أحيانا ويصاحبه انخفاض عام في النشاط النفسي والعضوي» [1].

ف"لارين" رغم ما تعيشه في عالمها المثالي من خيرات وملذات إلّا أنّها تعاني من اضطرابات لا شعورية جعلتها تفقد لذة الحياة ومتعة العيش الرغيد، وقد دخلت في دوامة من التعب العاطفي والغم والقنوط من كل ما يحيط بها وترجم كل ذلك في سلوكاتها اليومية يقول الروائي: «أعرف أكثر ما ابتاعته لا حاجة لنا به سوى نتخلص من أكثره.. إنّه الملل.. إنّه الإحباط.. لا أعرف الكثير عن حياتها الجنسية لكني أعتقد أنّ "مراد" لم ينم معها منذ قرون.. لابد أنّه ملها إلى درجة أن الليبيدافرو ذاته لم يعد مجديا معها...» [2].

ومن خلال هذا القول نلاحظ بأنّ شخصية "لارين" تعاني من الاكتئاب العصابي (الإستجابي) والذي يفهم على أنّه مرتبط بأحداث وصراعات تعيشها الشخصية كالإحباطات والحرمان من العاطفة والمساندة من الآخرين وحالة ترك، وهذا ما ينطبق وتعريف "ايدلبرج" (Edelberg): «هو عرض عصابي يتميز بنقص الاهتمام بالعالم الخارجي وزيادة العدوان اتجاه الذات والنقد الذاتي ومشاعر الذنب والعقاب الذاتي وكل ذلك يتعلق بفقدان موضوع ما لدى الشخص المكتئب» [3].

وعليه نستخلص بأنّ الاكتئاب هو عبارة عن حالة تغير في المزاج تمس نشاطات الحياة المختلفة ويظهر في مجموعة من الأعراض الانفعالية ويمكن اعتبار الواقع الحياتي الذي تعيشه "لارين" تسبب في دخولها دائرة الاكتئاب والإحباط النفسي.

---

[1] سوسن شاكر مجيد، اضطرابات الشخصية أنماطها، قياسها، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015م، ص192.

[2] الرواية، ص27.

[3] مدحت عبد الحميد، الاكتئاب دراسة في السيكوباثومترية، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص23.

د. شخصية جرمينال:

هي شخصية تعبر عن حياة معظم فتيات "يوتوبيا" اللواتي تعشن بلا قيود، فهن يفعلن كل ما يحلو لهن وتبدرن المال في المولات وتتعاطين المخدرات وتقضين معظم أوقاتهن في الحفلات وشرب الخمر وممارسة الجنس والتسلية مع الرجال وسماع أغاني الأورجازم حتى تدخلن في حالة لا واعية ويموت إدراكهن بالعالم الذي يحيط بهن يقول الكاتب: «ما من فتاة فوق الثانية عشر لم تجرب هذه الأعراض وتألفها...» [1].

وجميع فتيات "يوتوبيا" يعشن نفس الروتين، وجرمينال" كانت جزءا من عالم "يوتوبيا" تمارس عاداته التي جعلتها تتخلص من ضميرها الإنساني، حيث أنّها تعيش علاقات جنسية عابرة وعندما تكلل هذه العلاقات بجنين تقوم بالتخلص منه مباشرة يقول: «أشرت "لجرمينال" لكي تقترب مني.. كانت شاحبة قليلا بعد جراحة الكحت والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمرة الثالثة للخلاص من ابن جديد لي» [2].

فهي شخصية تدخل في علاقات فقط من أجل إشباع رغباتها والتسلية ولا يهمها تحمل المسؤولية أو تكوين أسرة حيث أنّه تتخلص من الجنين الذي تحمله وتعود إلى روتينها المقدس، فلا يمكنها أن تتخلى عن الحرية والرفاهية التي تعيشها في عالمها السامي الذي لا توجد فيه قوانين تتحكم في تصرفاتها بل المال هو الحل لكل شيء.

و"جرمينال" تمتلك في مدينها المثالية كل وسائل المتعة وكونها تنتمي إلى الطبقة المخملية جعلها تمتلك كل شيء تحلم به أو تطلبه فلا أحد يرفض أوامرها أو طلباتها، وهذا ما جعلها تملك سلطة الأميرات فانعكس عليها ذلك بالسلب مما أدخلها في حالة من المزاج المضطرب والمكتئب من كل ما يحيط بها، أي أنّها لا تحصل على السعادة النفسية بقدر ما تحصل على كل ما هو مادي وهذا ما يدفعها دائما لتجربة أمورا جديدة تبعث فيها الإثارة وتشعل حماسها يقول الروائي: «عندما لا يصدر أحدهم أمرا لك طيلة حياتك.. عندما يذللك الجميع

---

[1] الرواية، ص36.

[2] المصدر نفسه ، ص36.

تتحقق أتفه أحلامك، فإنّك تعشق من يرغمك على شيء.. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرا نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفد ما يقال لها مهما كان.. أي شيء.. لمعت عيناها حماسة» [1].

و"جرمينال" كانت ترى في أوامر الرجل لها شيئا جديدا لم تعهده من قبل، فتستجيب له دون تفكير، وبالرغم من حريتها المطلقة إلّا أنّها تبقى تحت سلطة الرجل وتعلقه واتباعه وهذا ما جعلها شخصية اعتمادية (Dependent personality Disorder) والتي تعرف: «بالشخصية التي يميل صاحبها إلى التعلق بالآخرين (...) وإن ما تتميز به هذه الشخصية هو الافتقار التام إلى الثقة بالنفس والاعتماد عليها حتى كادت تطغى عليه مشاعر العجز الشامل وعدم القدرة على حل أبسط مشكلة تواجهه أو اتخاذ قرار مناسب...» [2].

ف"جرمينال" شخصية اعتمادية خاضعة للأوامر خاصة أوامر صديقها "علاء" الذي كانت تعتمد عليه في اتخاذ القرارات ومن شدة تعلقها به لا تستطيع أن ترفض له طلب، حيث أنّها كانت مولعة به وبتصرفاته وتميل له كل الميل.

وعليه نلحظ أنّ شخصية "جرمينال" شخصية متهورة وغير واعية لسلوكاتها، خاصة عندما تكون مع صديقها "علاء" يقول: «كانت تحبني عندما اصدر الأوامر.. هذا يشعرها بالقهر ويدغدغ ماسو شيتها» [3].

والواقع الاجتماعي الذي تعيشه هذه الشخصية في عالمها المثالي دفع بها إلى العيش في حالة من اللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية اتجاه حياتها وقراراتها، وعدم إعطائها قيمة لحياتها دفع بها إلى القيام بتصرفات عنيفة بغية إرضاء "علاء" الذي كان يقرر ويسير حياتها بدلا منها، والذي أمرها في إحدى المرات بالتعدي على رجل من مدينة "الأغيار" فتماثلت للفعل يقول: «هنا دارت "جرمينال" بدورها حول الجدار، ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. لم يكن هذا سهلا لأنّها لم تعتده وقد اضطرت إلى أن تهوي على رأسه» [4]،

---

[1] الرواية، ص37.

[2] ينظر، كارل ألبرت، أنماط الشخصية أسرار وخفايا، ص95-96.

[3] الرواية، ص37.

[4] المصدر نفسه، ص41.

والكاتب من خلال هذا القول يؤكد بأنّ شخصية "جرمينال" شخصية اعتمادية بالدرجة الأولى ومستكينة لأوامر صديقها الذي ترى بأنّه شخصا كاملا ومثاليا ولديه كاريزما لا تقاوم، لدى فهي متعلقة به وتسمح له بأن يملي عليها الأوامر التي تلبيها دون وعي منها، حتى وإن كانت أوامره تلحق بها الأذى، وكل ما يحدث لها هو انعكاس لحالتها النفسية المتأزمة والتي كانت جراء انتمائها لمجتمع صناعي رأس مالي، والذي يقصي العاطفة والمشاعر الأسرية التي تنتج الفرد السوي في المجتمع.

3أنماط الشخصيات الديستوبية:

أ. شخصية جابر:

وهي الشخصية التي تبرز العالم السوداوي الذي أفرزه الصراع الطبقي بكل معنى الكلمة، حيث يصف "جابر" القاع الذي وصل إليه مجتمعه في تلك المرحلة بأسلوب يملأه التشاؤم والكآبة والأسى، فالكاتب من خلاله يعطينا لمحة دقيقة عن حال الكثير من شباب المدينة الديستوبية الذين ينهش الفقر أحشاءهم وأجسادهم بلا رحمة فلا يوجد بصيص أمل لتغيير أوضاعهم المزرية، باعتبار أنّ مجتمع "الأغيار" هو مجتمع المحرومين من أبسط حقوق الحياة، حيث قتلت فيه أحلامهم وسقطوا في دوامة الفقر التي لا مخرج منها، وهذا المجتمع قد قتلت فيه الأحاسيس والمشاعر وأصبحت سلوكات الناس فيه عشوائية كالحيوانات تسيرها غرائزهم كي يحيوا يوما آخر يقول الكاتب على لسان الصياد وهو يصف جابر: «كان في الثلاثينات من عمره نحيل منكوش الشعر تبدو عليه سمات سوء التغذية لكنه قوي البنيان كالذئاب، وعلى أنفه نظارة تم لحامها بالنار ألف مرة، ومن تحتها وجه امتلأ بالخياطة كأنّه وجه المسخ في أفلام (فرانك شتاين) لاحظت أنّ له قرينة ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء» [1].

[1] الرواية، ص99.

والكاتب من خلال وصفه لهيئة "جابر" يبين لنا حالته الاجتماعية التي انعكست على حياته النفسية، فجسمه الذي يوحي بسوء التغذية والمشاجرات من أجل الحصول على لقمة العيش يقول:«أدناه مليئتان بالصماخ.. أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل فقير(...) طعامه فاسد.. كتبه بالية..أحلامه موءودة» [1].

والحالة القدرة التي آل إليها "جابر" بسبب الطبقة التي ينتمي إليها تبدو واضحة من خلال هذا القول، أي أنّه يعيش معاناة مادية قد فرضها عليه اقتصاد المجتمع الذي ينتمي إليه والذي قتل آماله فلا يستطيع أن يحلم في الواقع المرير الذي يعيشه والذي حوله إلى حيوان لا يهمه سوى أن يجد لقمة يسكت بها جوعه أو يدخن سيجارة حشيش فينتقل بتأثيرها من أرض "الأغيار" إلى أرض الأحلام، ويمكن القول بأنّ "جابر" عينة صغيرة لآلاف الأفراد الذين ينتمون لمدينة "الأغيار" ويعانون من انعدام أبسط ضروريات الحياة الإنسانية يقول: الجميع تواطأ علي

أنا كي أعيش بلا مأوى...

بلا مشرب...

بلا ثياب...

بلا سقف...

بلا حبيبة...

بلا كرامة...

بلا أسرة (باستثناء صفية)

بلا ثلاجة...

بلا جهاز هاتف...

بلا ربطة عنق...

[1] الرواية، ص125

بلا أصدقاء...

بلا حذاء...

بلا سروال...

وأخيرا بلا أحلام[1]

وهنا "جابر يؤكد على أنّ أحلامه قد قتلت ودفنت في أرض "الأغيار" مثله مثل باقي شباب طبقته ومجتمعه، بعد أن اغتصب حقه من العيش كإنسان كريم يملك كل مقتضيات العيش؛ فقد حرم من الطموح للعيش مع حبيبته وبناء أسرة سعيدة، وهذه الظروف القاسية التي يعيشها صنعت منه شخصية عاطفية هشة تتأثر بحالة المجتمع الذي ينتمي إليه وتتأسف على عدم قدرتها على إحداث تغيير يقول: «وأنا أطارد الكلب لسبب من أجل الجوهرة.. بل لأنني جائع والله العظيم جائع الضربات تتطاير في كل صوب.. ضربات.. طعنات.. بصقات.. شتائم.. قبضات.. نصال.. عرق.. أنا ضعيف جدا» [2].

ف"جابر"من خلال هذه العبارات المتقطعة يخرج مشاعره المحبطة للعلن من خلال سلوكه الشاذ والمتمثل في مطاردته لكلب بغية إسكات جوعه.

وانتماء "جابر للعالم الديستوبي جعله شخصية متذبذبة المشاعر وعاطفية ويعرف الشخص العاطفي بأنّه من: «يتحسس ويتأثر بقوة ويحتفظ بذاكرة مديدة لأحاسيسه وتأثيراته فهو لا ينسى من أحسن أو أساء إليه لكنه لا يمتلك النشاط لتحويل كل تلك التأثيرات إلى عمل واقعي (...) ويتميز العاطفي بصفات كثيرة منها: استحضار الماضي بآلامه والطموح الخيالي (أحلام اليقضة)، المزاج المتقلب، والعلاقات المتقلبة والشك والوسواس»[3].

---

[1] الرواية، ص139.

[2] المصدر نفسه، ص77-78.

[3] ينظر، محمد عياش الكبيسي، أنماط الشخصية وإشكالات القيادة في العالم الإسلامي المعاصر، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان ، 2010م، ص64.

وهذه السمات تتطابق مع "جابر" الذي يعيش الاضطراب والتعاطف المبالغ فيه مع كل الظروف المحيقة به، وهذا ما دفع به للحديث عن المشكلات التي يعاني منها شبان مجتمعه يقول: «لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد (...) لم يعد من شيء قادرا على أن يبسطكم سوى سكرات الموت ذاتها» [1]، فهم في رأيه يدمنون الحشيش ويتعاطون المخدرات فقط من أجل أن ينسوا واقعهم المرير.

والشخصية العاطفية تتميز بأن صاحبها يمتلك حسا أخلاقيا عاليا والتفكير المفرط بالآخرين، وهذا ما جعل "جابر" يتحدث عن ظاهرة الجنس والبغاء الشائعة في مجتمعه ويعطي موقفه منها يقول: «مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس شيء يمكنك الحصول عليه..الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو اغتصاب..» [2].

ورغم أنّ الأخلاق قد قتلت في مجتمعه وأصبحت الرذيلة أمرا حتميا فيه-فكمية العجز والفقر التي يعيشها مجتمعه قضت على الأخلاق كليا- إلّا أنّه يؤكد رفضه لذلك ويهلوس بطموحه إلى إنشاء أسرة أي حلم ما بعد الجنس يقول: «لكني برغم هذا ظللت أصبو لشيء آخر.. أصبو لما بعد الجنس (...) عاطفة غامضة لن أطلق عليها اسم الحب لست بهذه السذاجة والغنائية» [3].

وقد استطاع الروائي من خلال هذه الشخصية أن يعطينا رؤية عن الإنسان المثقف الذي يعيش في ظلمات الفقر لكنه لم يتخلى عن أخلاقه وقيمه مهما انحطت مكانته، حيث أنّ "جابر" كان شابا مثقفا ينكب على قراءة الكتب ويطلع على محتواها مما جعله واعيا للأوضاع التي حدثت في مجتمعه وأسباب ظهور فجوة ما بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة، وتدهور الأوضاع وسوء المعيشة التي تعاني منها مدينة "الأغيار" يقول الروائي: «هو من طبقة (التلامذة).. انهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعات منذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملا ولم

---

[1] الرواية، ص88.

[2] المصدر نفسه، ص79-80.

[3] نفسه، ص80.

يستطيعوا أن يضعوا شيئا بما تعلموه.. لكن علاقاتهم بالكتب لا تنتهي» [1]، فـ"جابر" يمثل تلك الطبقة المتعلمة من المجتمع المصري التي أجبرتها الظروف على أن تعيش البؤس والشقاء تحت رحمة النظام الرأس مالي الذي قضى تماما على مجتمعها وجعلها في القاع وهذا ما دفع بـ"جابر" أن يتخذ من الكتب وسيلة يخدر بها عقله ويهرب بها من واقعه الحتمي الذي فرض عليه وجعله فارغا ماديا وروحيا: «قلت لها إنّ القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات لا أفعل بها شيئا سوى الغياب عن الوعي» [2].

و"جابر" شخصية متفاعلة مع المجتمع حيث أنّه يتأثر به ويؤثر فيه، وهذا ما جعله يعيش اضطرابات عاطفية مفرطة؛ أي أنّه يدرك إدراكا تاما لواقعه ويشعر بكل تحولاته ولكنه لا يسعى لإحداث أي تغير فيه وهذه سمة من السمات التي تتميز بها الشخصية العاطفية التي يربطها خيط عاطفي مع واقعها وإلا أنّا فاقدة للأمل ولها نظرة تشاؤمية سوداوية للحياة.

وبالرغم من هذه الرؤية التي تستحوذ على تفكيره وتدفع به إلى الرغبة في الموت إلّا أنّ هناك مشاعر تكبح هذه الرغبة الجنونية ألا وهي حبه لأخته "صفية" التي وهب ما تبقى من حياته لها وضحى بنفسه من تحيا بسلام يقول: «لهذا أنا حي.. لن أموت وأترك "صفية" تسرق أو تهز رد فيها بائعة السلعة الوحيدة التي تملكها (...) لن أموت وأتركها تجوع.. لن أموت وأتركها تحيا بلا حياة» [3].

فالكاتب يصور لنا الأمل الوحيد الذي يتمسك به "جابر" وسط الظلام الذي يعيشه في مدينته المخربة وهو الحياة من أجل أن تحيا "صفية"، ففقدانه الرغبة في العيش والوجود لم تكبت مشاعره وعواطفه اتجاه أخته.

وعليه يمكن القول بأنّ "جابر" شخصية متأزمة عاطفيا تعاني من التذبذب في المشاعر فأحيانا يتمنى الموت وأحيانا أخرى يتشبث بالحياة، وأحيانا يظهر استعطافه لأفراد مجتمعه وأحيانا أخرى يقذعهم ويلعن حياتهم الزنخة

---

[1] الرواية، ص80.

[2] المصدر نفسه، ص73.

[3] نفسه، ص81.

وانتماءه إليهم يقول: «هاأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب.. لقد أنذرتكم ألف مرة...» [1].

كما أنّ "جابر" يعاني من عقدة عاطفية نتيجة لعدم قدرته على إنشاء أسرة ودخوله في علاقة حميمية مع الفتيات بسبب شعوره بالنقص جراء تشوه عينه فأصبح يهلوس بأسماء فتيات ويتوهم بحديثه معهن يقول: «"نجاة" تضحك.. "نجاة" تهتز.. "نجاة" تقطب.. "نجاة" تغمز.. "نجاة" تنتشي..» [2].

ويقول كذلك: «"عواطف" تضحك.. "عواطف" تهتز.. "عواطف" تقطب.. "عواطف" تغمز.. "عواطف" تنتشي..» [3].

ذويقول أيضا: «"عزة" تضحك.. "عزة" تهتز.. "عزة" تقطب.. "عزة" تغمز.. "عزة" تنتشي..» [4].

ب. شخصية صفية:

وهي فتاة في العقد الثاني من عمرها، أخت "جابر" الوحيدة ومن خلالها يصف لنا الكاتب محنة فتيات الطبقة السفلى من مجتمع "الأغيار" اللواتي تنتظرن الرعاية من أقرب الناس إليهن، ورغم قساوة الظروف التي تعشنها إلا أنّهن ترفضن الخنوع والوقوع في المستنقع المحيط بهن، فـ"صفية" تعد مرآة عاكسة للواقع الذي تعيشه في عالمها الديستوبي، حيث أن مظهرها الخارجي كان رسالة واضحة للحياة التي حضيت بها فقد كانت قذرة الملابس متسخة الوجه، رائحة العرق منبعثة منها، ومظهرها يثير اشمئزاز الناظر ويظهر وضعها الاجتماعي يقول السارد: «يبدو أنّها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفى أي حسن.. القذارة جعلت ثوبها صلبا لا يرف ولا يهتز كأنّه من جلد مذبوغ» [5].

---

[1] الرواية، ص84.

[2] المصدر نفسه، ص75.

[3] نفسه، ص76.

[4] نفسه، ص72.

[5] نفسه، ص100.

حيث أنّ "صفية" أعطتنا رؤية عن حقيقة معاناة مراهقات "الأغيار" اللّاتي تعيشن ظروفا قاسية حرمتهن من أبسط الأشياء التي تتمتعن بها المراهقات في أعمارهن في مدينة "يوتوبيا" (كاللباس، العطور، مستحضرات التجميل)، ففتيات "الأغيار" ليس لديهن لا الوقت ولا المال الكافيين للاعتناء بذواتهن فهن طوال النهار يبحثن عن لقمة العيش ويكافحن من اجل الحياة في مجتمع فتكت بنظامه الآفات الاجتماعية المروعة.

وحياة "صفية" تتسم بشظافة العيش وصعوبة الظروف التي انعكس على أنوثتها وأفقدتها جمالها يقول الروائي وهو يصفها: «نعم أرى الفارق.. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصفة الأظافر الغريب.. أنّ الأولى يد رجل والثاني يد أنثى...» [1]، وهي شخصية انطوائية وهذا راجع إلى جملة من العوامل الاجتماعية والأسرية حيث أنّها تعيش في مجتمع فقير مليء بالمشكلات الاجتماعية دفع بها إلى تبني نزعة التحاشي وعدم الانفعال مع الآخرين، مما تسبب لها في حالة نفسية كئيبة جعلتها تتقوقع على ذاتها ولا تحتك إلّا بأخيها "جابر" وبسبب حمايته المفرطة لها وظروف منزلها السيئة أصبحت إنسانة خجولة قليلة الكلام والحركة يقول الكاتب: «نظرة الحيوان الخجول الوجل المتواري في الدغل تبدت في عينيها عندما رأتنا.. فيما بعد عرفت أنّ هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنّها متصلتان بالروح مباشرة» [2].

ويعرف الشخص الانطوائي بأنّه الشخص: «المشغول بعالمه الداخلي من خيال ونشاط بدني وهو غير قادر نسبيا على المشاركة الاجتماعية ويتجه اللبيدو أو (الطاقة النفسية) عنده إلى الداخل نحو عالمه الشخصي على عكس المنبسط الذي يتجه (...) إلى البيئة الخارجية ويهتم بالعلاقات الاجتماعية ويجد فيها إشباع لحالته اللبيدية» [3].

---

[1] الرواية، ص110.

[2] المصدر نفسه، ص101.

[3] مجدي أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، دار المعرفة الجامعية، بيروت، لبنان، 2000م، ص39.

ف"صفية" ترهب الناس وتخافهم ولا تقيم صدقات معهم، فعالمها ينحصر في ذلك الكوخ الذي تقطن فيه، وهذا ما نلمسه من خلال معاملتها لفتاة "يوتوبيا" "جرمينال" التي أحضرها أخيها معه يقول: «ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أراها من قبل إلا مع قرد مد يده مرة يتحسس أناملي (...) زادتني اقتناعا بنظرية القرد تلك.. هذه حركات غير بشرية» [1].

أي أنّ سلوكات "صفية" تبرهن على عدم قدرتها على التعامل مع الآخرين لأنّها معزولة ومنطوية على ذاتها، ومن فرط الانعزال أصبحت همجية لا تفرق بين الصواب والخطأ في أفعالها وتصرفاتها وكل ما تراه يبهرها وتستعجب منه يقول: «قالت الفتاة بصوت مبحوح شعرها جميل.. جميل جدا ونظيف.. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا ليس بشعر كهذا» [2] و"صفية" هنا تستعجب من جمال شعر "جرمينال" الذي لم ترى مثله من قبل.

ج. شخصية سمية:

اتخذ "أحمد خالد توفيق" من شخصية "سمية" مثالا جريئا عبر من خلاله عن واقع المرأة في مدينة "الأغيار"؛ المكان الذي يحكمه الجهل والتخلف والفقر، فنساء هذه المدينة قد تم اغتصاب حريتهن وأصبحن مجرد سلع تباع وتشترى في سوق الرجال، وبذلك يعيد الكاتب إحياء تصوير سوق النخاسة الجاهلي في عالم "الديستوبيا"، حيث أن المرأة في هذا العالم وظيفتها ممارسة البغاء من أجل التكسب والحصول على المال الضروري لتلبية حاجاتها يقول الروائي: «لم يكن بلطجيا.. إنّه قواد.. صحيح أن جسده يوحي بالمهنة الأولى لكن دعني أؤكد لك إنّه قواد.. لا يبيع قوة جسده وبطشه ولكن يبيع نساءه، بضاعته الوحيدة هي "سمية"» [3].

و"سمية" تعيش في مجتمع فتك الفقر عقول أفراده وأصبحت غريزة الجوع هي المسيرة لسلوكاتهم، فنتائج الصراع الطبقي وانقسام المجتمع إلى مجتمع فقير فقر مذقع ومجتمع غني غناء متخم قد أفرز نمط حياتهم الذي

---

[1] الرواية، ص110.

[2] المصدر نفسه، ص110.

[3] نفسه، 89.

يعيشونه في عالمهم المظلم يقول: «كانت بلا عمل سوى أن تسرق أشياء من الباعة، زوجها تركها لأنّه حاول مرارا أن يقنعها أنت (تفتح مخها) لكنها رفضت في إباء.. هناك كنز في الدار يمكن أن يكفل له حياة طيبة لكن الكنز يرفض أن يباع..» [1]، فبيع أجساد النساء من أجل الحصول على المال قد أصبح أمرا مألوفا في المدينة الديستوبية، حتى لو كانت المرأة متزوجة تذهب للعمل وممارسة الرذيلة كي تعيل زوجهاوفي بعض الأحيان يقوم بإرسالها قسرا.

وقساوة العالم الذي تنتمي إليه "سمية" جعلها شخصية عنيفة ومتقلبة تميل إلى الإسترجال، وذلك من أجل أن تحمي نفسها من الذئاب البشرية المحيطة بها، وجني القليل من المال، فقد محت ملامح الأنوثة منها واختارت ارتداء قناع الاسترجال من أجل أن تعيش في عالم أصبح الألم فيه دافعا للأمل يقول: «ذوقه رديء جدا.. "سمية" أقبح الفتيات هنا وهي أقرب إلى ذكر مكتمل الرجولة» [2]، فالخراب الذي غشى مدينة "الأغيار" قد انعكس على تفكير سكانها وكذلك على نفسياتهم وسلوكاتهم فنجد بأنّ "سمية" تعاني من الانحراف الجنسي وبالضبط البغي والمومس« ويعرف البغاء (Prositution) بأنّه ذلك الفعل الذي تقدم فيه الأنثى نفسها للاتصال الجنسي مع الذكور بدون تميز وبقصد الحصول على المال» [3].

أي أنّ "سمية" قد جعلت من جسدها سلعة يقتنيها الرجال متى شاءوا يقول الكاتب: «رحت أشق طريقي وسط الخرائب بحثا عن "سمية" وزبونها» [4].

ويقول كذلك: «سألتني الفتاة وهي تفك تنورتها:

هنا؟

---

[1] الرواية، ص74.

[2] المصدر نفسه، ص89.

[3] محمد حسن غانم، الإضطرابات النفسية والعقلية والسلوكية (الوبائيات-التعريف-محاكاة التشخيص-الأسباب- العلاج-المآل والمسار)، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ، 2005م، ص367.

[4] الرواية، ص90.

أفضل الابتعاد فأنا خجول..

أطلقت صهلولة عالية رقيعة ومضت معي..» [1].

حيث أنّ المكان الوضيع الذي تحيا فيه "سمية" دفع بها إلى القيام بسلوكات منحرفة وانحرافها لم يتوقف عند ممارستها للبغاء بل تعدى ذلك إلى تعاطيها المخدرات وإدمانها عليها وذلك من أجل أن تنسى واقعها المرير، كما اتخذت من القساوة والتصرفات البربرية وسيلة لتذكر نفسها بأنّها تنتمي إلى الطبقة المعدومة المدمرة يقول "جبر" وهو يصف سلوكاتها اللاواعية: «"سمية" جاءت في الخامسة عصرا إلى كوخي.. كانت ثملة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقيل، جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة آنس صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف...» [2].

وعليه يمكن القول بأن المهنة التي تمارسها "سمية" قد امتصت كل طاقتها وجعلتها تعيش بلا كرامة ولا أمل في استرجاع حريتها وأنوثتها، فجسدها أصبح قمامة يتداولها الرجال ومشاعرها وأحاسيسها استنزفت تماما وأصبح مجرد جسد بلا روح يقول الروائي: «هذه المهنة شاقة.. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها» [3].

ومما حللناه سابقا يمكن القول بأنّ "أحمد خالد توفيق" استطاع أن يعكس لنا المشكلات النفسية المتأزمة لشخصيات المجتمع "اليوتوبي" و"الديستوبي" على حد سواء، ولا سيما المراهقين الذين يعانون من اضطرابات وعقد نفسية والتي كانت نتيجة للصراع الطبقي الذي يعيشونه في المجتمع المصري، حيث دفعت بهم إلى تبني أنماط وسلوكات شاذة في حياتهم اليومية، وقد حاول الكاتب أن يبين لنا أوجه التشابه والاختلاف بين شخصيات كل عالم أو ما يصطلح عليه "ثنائية المدن الفاضلة والمدن الفاسدة".

---

[1] الرواية، ص58.

[2] المصدر نفسه، ص133.

[3] نفسه،ص152.

وقد وضح ذلك من خلال تصويب اهتمامه على شخصيتين محوريتين في هذا العمل الفني، فكل شخصية منهما تعكس لنا حالتها النفسية وما تبنته من سلوكات وأفكار خاصة بها في العالم الذي تنتمي إليه وهاتين الشخصيتين هما "علاء" من مدينة "يوتوبيا" و"جابر" من مدينة "الأغيار"، وما نلحظه أن كلاهما مثقف وحالتهما النفسية المتشابكة دفعت بهما إلى قراءة الكتب؛ فـ"علاء" كانت غايته من قراءتها هو التغلب على الملل والسأم أما "جابر" فكان يقرأ من أجل أن ينسى المعاناة التي يعيشها في مجتمعه الفقير، فشخصية "علاء" شخصية مستهترة أما "جابر" فهو شخصية حساسة.

ورغم أن كلاهما يقوم بسلوكات منحرفة حيث يتعاطيان المخدرات ويرغبان في ممارسة الجنس إلا أن "علاء" كان هدفه من تجربة كل تلك الانحرافات هو التسلية وبلوغ النشوة والإثارة، لكن "جابر" كان من خلالها يهرب من واقعه المرير الذي أدخله في صراع نفسي عويص وقضى على كل أحلامه.

كما نجد بأن لكل منهما نظرة مختلفة للجنس؛ فـ"علاء" كان يمارسه من أجل إفراغ شهواته الحيوانية والوصول إلى المتعة المثالية المطلقة، عكس "جابر" الذي كان يحلم بما بعد الجنس أي تكوين أسرة لكن مجتمعه يثبت له بأن حلمه بعيد المنال ومنشود.

وبذلك يبرز الكاتب سبب التناقض الكبير بين سكان مدينة "يوتوبيا" وسكان مدينة "ديستوبيا"، ويؤكد على أن كل منهما يعاني من عقد نفسية واضطرابات سلوكية يختلف سببها حسب ظروف الحياة في كل من المدينتين.

الفصل الثاني: انعكاس نفسية الشخصيات اليوتوبية والديستوبية من خلال (المكان، اللغة ، الدين)

1/ المكان:

اتخذ "أحمد خالد توفيق" من المكان عنصرا أساسيا في روايته، حيث يعتبر بمثابة الأرض التي هندس عليه أفكاره ، فروايته "يوتوبيا" تقوم بأكملها على مدينتين وكل مدينة تمثل لوحة فنية تصور لنا قضية الصراع الطبقي في المجتمع المصري والبيئة العربية بصفة عامة والتي دفعت بالشخصيات إلى تبني الفكر اليوتوبي والديستوبي بسبب الأزمات النفسية التي فرضها عليها المكان الذي تنتمي إليه.

ويعتبر المكان في هذا العمل الفني مسرح وقوع كل الأحداث وينبوع الأحاسيس والمشاعر التي تعيشها الشخصيات، حيث أنه يشغل مكانة بارزة في السرد الروائي باعتباره بنية أساسية تحمل مجموعة من الدلالات فهو: «الحيز والحجم والمساحة والخلاء، أما اللغة الاصطلاحية الانجليزية فغالبا ما تعني كلمة « Space » الفضاء الخارجي، أي المنطقة الواقعة خارج الغلاف الجوي والتي تحسب أنها خواء بينما هي في الواقع ليست فراغا تاما»[1] فبه يقدم الكاتب لنا واقعه المعاش ويعبر عن هويته وثقافته ومن خلاله يمكن استنتاج الإيديولوجيات التي يتبناها «وإنّ المكان أيّا كان شكله ليس هو المكان في الواقع الخارجي ولو أشار إليه (...) أو نقته باسم إذ يظل المكان في الرواية عنصرا من عناصرها الفنية» [2]، حيث أنّ الكاتب قد يلجأ إلى استخدام أماكن شبه حقيقية ليقذف بالقضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيشها مجتمعه، ويتخذ في الغالب من الخيال العنصر الأساسي في بناء هذه الأمكنة فجلها من مخيلته وعالمه اللاشعوري، وقد يكسبها أسماء حقيقية بالرغم من عدم وجودها على أرض الواقع.

---

[1] ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان، تر: (السيد عطا)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م، ص09.

[2] أحمد زياد، الرواية دراسات نقدية متنوعة، ط1، دار المعارف، بيروت، لبنان، 2005م، ص29.

«وفي وصف المكان الروائي يبرز ما يسمى الفضاء الروائي الذي يعني _في مفهومه الفني: مجموعة الأمكنة التي تظهر على امتداد بنية الرواية مكونة _بذلك فضاءها الواسع الشامل» [1].

وعليه فإن المكان هو إبداع من مخيلة المبدع نفسه؛ وذلك لأنّه يجد فيه الوسيلة المتفردة التي تمنح له المساحة الواسعة للتعبير عن كل ما يجول في خاطره بكل أريحية، وقد يكون له ملامح مألوفة ومتميزة أو غريبة.

وهناك من يطلق عليه اسم "الحيز" أو "الفضاء" وهذا ما نجده عند الناقد "عبد المالك مرتاض" الذي قال بمصطلح «الحيز باعتباره أن مصطلح الفضاء قاصر بالنسبة إلى الحيز لأنّ الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء أو الفراغ بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء والوزن والثقل والحجم والشكل... ،على حين أنّ المكان نريد أن نقفه في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحده» [2]، وهذا يدل على أنّه يوجد تداخل بين الفضاء والحيز والمكان وهذا الأخير هو: «الإطار الذي تقع فيه الأحداث (...) حيث أن المكان يرتبط بالإدراك الحسي» [3]؛ ففي العمل السردي بصفة عامة يعتبر المكان عنصرا أساسيا في بنائه ويلعب الدور الكبير في إبراز ملامح الشخصيات وتحركاتها «والمكان أحد الأركان الأساسية التي يرتكز عليها العمل الأدبي ولاسيما الرواية، فهي تحتاج إلى مكان تدور فيه الأحداث ولا يهم إن كان مكانا حقيقيا أو خياليا من شبح خيال الكاتب» [4].

إنّ تركيبة المدن التي بنى عليها "أحمد خالد توفيق" روايته كان لها انعكاس واضح على نفسية الشخصيات، باعتبار أنّ المكان عامل أساسي في تحديد سلوك الإنسان ونمط حياته وعلاقاته مع الغير وانفعالاته اليومية، كما تلعب طبيعته وهندسته الدور الكبير في إبراز أشكال سلوك الشخصيات والأمراض النفسية التي تعاني منها، وقد انقسم المكان في الرواية إلى مدينتين:

---

[1] آمنة يوسف، السرد في النظرية والتطبيق، ط2، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 2015م، ص33.

[2] عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية (البحث في تقنيات السرد)، ص121.

[3] سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م، ص77.

[4] أسماء شاهين، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ط1، دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001م، ص15

أ. **مدينة يوتوبيا:**

بدأ الكاتب روايته بتجسيده لمعالم مدينة الأغنياء، والتي حملت عنوان الرواية "يوتوبيا"؛ وهي مدينة تقع في الساحل الشمالي يعيش فيها الأثرياء وأبناؤهم وأحفادهم، وهي الفئة التي تمتلك كل الموارد التي تكفل لها حياة الملوك، وهم عمالقة الرأس ماليين الذين تم تجميعهم في هذه المدينة الصناعية، التي توجد فيها كل سبل الراحة والمتعة وقد وصفها الكاتب في قوله: «(يوتوبيا)... المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه» [1].

كما وصف الهيكل العمراني للمدينة والذي يصور مدى رفاهية ومثالية مجتمعها، ونعمة الأمن التي يعيشون فيها «يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابة العملاقة.. السلك المكهرب.. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين (...)، منطقة الحدائق.. منطقة المدارس المخصصة.. منطقة العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.. منطقة المولات..» [2].

ومما لاشك فيه أنّ كل هذه المعالم والمنشآت كان لها تأثيرا واضحا في بناء شخصية ونمط سكانها والهوية التي يتبنونها ، وحالتهم النفسية والعاطفية، فالمثالية والرفاهية التي منحتها لهم الرأسمالية خلقت فيهم سلوكات غير سوية.

وفي مدينة "يوتوبيا" يوجد كل أنواع الترف ، يستطيع سكانها فعل كل ما يحلو لهم، خاصة الشبان فالآباء ليس لهم الحق في التحكم أو السيطرة في سلوكاتهم المنحرفة، وهذا ما أدى إلى انتشار الآفات الاجتماعية كتعاطي المخدرات بشتى أنواعها، والانحلال الخلقي كممارسة الجنس، فسكان هذه المدينة قد أقصوا من حياتهم ما يعرف بالأخلاق والدين وأصبحوا لا يفرقون بين الحلال والحرام، بل مبدؤهم الأول هو كل شيء تشتهيه في يوتوبيا مباح

[1] الرواية، ص20.

[2] المصدر نفسه، ص20-21.

لك ما دام المال متوفر وبكثرة يقول الكاتب: «لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدا.. لا يشيخون ولا يهرمون وشهوتهم للنساء أبدية كآلهة الإغريق» [1].

وظاهرة البغاء منتشرة وبكثرة وهي أقوى من العرف والقانون، حيث أنّ ممارسة الجنس أصبح أمرا عاديا في المجتمع اليوتوبي وحتى الشباب جعلوه روتينا في حياتهم اليومية، فلا أحد يراقبهم أو يعطيهم الأوامر أو حتى يمنعهم يقول: «لم يعتد أبواي مراقبتي بهذا الصدد.. لا أحد يتدخل في حياتي على كل حال.. من حقي أن أتعاطى أي شيء وبأي كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليها أن ينجباني» [2].

والملاحظ على المكان الذي نسج فيه "أحمد خالد توفيق" أحداث روايته قد كان نتيجة حتمية لمخطط أنتجه رجال أعمال يوتوبيا ليتفادوا طوفان الفقر الموحش، ويبتكروا عالمهم المثالي ويضمنوا مستقبلا زاهرا لهم ولأبنائهم وهذا ما نلمسه في قول علاء فتى يوتوبيا: «أتذكر (يوتوبيا) وبيتي والدولارات التي أبعثرها.. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقا له، أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمسة من هؤلاء يوميا... » [3].

كما أنّهم تمكنوا من خلق ثورة صعبة الزوال وذلك وفقا لمبدئهم البرغماتي الذي يقوم على المصلحة الشخصية وطمس الأخلاق والقيم.

وفي مدينة "يوتوبيا" تم تبني نمطا جديدا للحياة ، حيث المادة البحتة تحكم هناك، وقانون سكانها ينص: «افعل ما تريد طالما تعتد على مال سكان يوتوبيا والأهم افعل ما تريد والأهم أبقه سرا حتى لا تضع على عاتقنا عبئ أن نبدو حازمين ولا تضع على ضمائرنا أن نتظاهر بالشفقة» [4].

كما أنّ عدم شعور شخصيات مدينة يوتوبيا بالتجديد والتغيير في تركيبة مدينتهم المغلقة جعلهم صورة طبق الأصل عن بعضهم البعض، فمدينتهم الصناعية أدخلتهم في دوامة لا متناهية من الاكتئاب والملل، وكل

---

[1] الرواية، ص45.

[2] المصدر نفسه، ص17.

[3] نفسه، ص119.

[4] نفسه، ص37.

ذلك دفعهم إلى كسر حاجز العزلة والبحث عن مكان جديد يسمح لهم بتفجير انفعالاتهم، أي أنّ هناك علاقة واضحة بين المكان الذي ينتمون إليه وحالتهم النفسية، حيث أنّ مدينة يوتوبيا وقوانينها فرضت أنماط شخصياتهم وسلوكاتهم الشاذة، وجانبهم الشعوري أصبح ماديا محض يقول الروائي وهو يصف حماس فتى يوتوبيا وهو خارج من محيط الأغنياء إلى عالم الخراب : «العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول يوتوبيا»[1]، فالإصرار على خوض هذه التجربة كان الهدف منه كسر المألوف وخلق أمورا جديدة تثير المتعة وتجعلهم يتخطون واقعهم المفروض عليهم يقول: «الحقيقة أنّ لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت.. نظام الكابل وسينما المنزل..» [2].

كما أنّ اقتصاد مدينة يوتوبيا يقوم في مجمله على مادة البايرول، وهي مادة أسقطت من قيمة البترول الذي أصبح رخيصا كالماء، وفي تحرك السيارات والطائرات و على أساسها تقوم عجلة اقتصاد هذه المدينة، وهذا ما جعل سكانها يفقدون جانبهم الحسي والشعوري فحياتهم تعطي انطباعا بفتور العلاقات الاجتماعية وشيوع الفردية وانعدام المشاركة الوجدانية يقول: «نعم... لم يكن لدى المصريين ما يباع سوى الماضي وقد اشتريناه ودفعنا ثمنه البايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المثالية» [3].

وهنا يؤكد الكاتب أنّ أثرياء مصر قد قاموا ببيع حضارتهم الفرعونية وعلاقاتهم الاجتماعية مقابل الحصول على الحياة الراغدة التي يعيشونها الآن.

وإنّ ازدحام واكتظاظ مدينة يوتوبيا أدى إلى تدهور هوية الشخصيات اليوتوبية، وانهيار كامل للنظام الاجتماعي، فثقافة مواطني يوتوبيا هي ثقافة غريبة صرفة، حيث أنّهم حاكوا نمط حياة الغربيين وتأثروا بثقافتهم وانصهروا في فكرهم، وهذا ما تسبب في طمس هويتهم العربية والتبشير في المستقبل بمجتمع غربي بكل معنى

[1] الرواية، ص38.
[2] المصدر نفسه، ص39.
[3] نفسه، ص33.

الكلمة يقول الروائي: «ستة عشر عاما من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا، أنت مواطن (يوتوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل فصرت لا تعرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي» [1].

ويمكن القول بأنّ المكان الصاخب الذي تعيش فيه الشخصيات اليوتوبية قد تسبب لها في مشكلات نفسية وإثارة انفعالاتها المنعكسة عليهم بالإحباط والغضب والتوتر والعدوانية في التعامل مع بعضهم يقول الروائي: «من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بسيارات الشباب غالبا ما تنقلب سيارة أو اثنان وهذا ما يضفي إثارة غير عادية على الحياة» [2]، حيث أنّ مراهقي يوتوبيا يجدون في العنف والعدوانية شيئا مسليا كاسرا للملل.

فالرفاهية المفرطة الموجودة في مدينة يوتوبيا قد انعكست بشكل سيء على تصرفات ومشاعر سكانها ، أي أنّهم يمتلكون في حياتهم كل شيء ومع ذلك لا يشعرون بالسعادة، بل بالعكس تماما يحسون بحالة من العبثية والعدمية واللامبالاة بوجودهم وهذا ما يعرف بالفراغ الوجودي يقول الكاتب: «عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأنّ التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة.. حتى إفراغ مثانتك في حوض المطبخ يبدو متعقلا مملا..» [3].

وفي الأخير يمكن القول بأنّ المكان اليوتوبي كان له انعكاسا واضحا على السلوكات الشاذة والمنحرفة التي تبنتها الشخصيات.

ب. مدينة الأغيار:

وهي المكان المهمش الذي اختاره الكاتب ليبين لنا أحوال الطبقة السفلى من المجتمع المصري، فبنية وتركيبة هذا المكان توضح لنا تفكير شخصياته وأحوالهم النفسية والاجتماعية.

---

[1] الرواية، ص15.

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] نفسه، ص23.

تقع هذه المدينة خلف جدران مدينة يوتوبيا المركزية، ولا يوجد فيها أبسط متطلبات الحياة سوى أكواخ مصنوعة من قطع الخشب وأجزاء مفككة من هياكل السيارات، فلا مستشفيات ولا مراكز أمن ولا خدمات التوصيل والخراب يسود كل معالم هذا المكان، فأرض الأغيار هي تلك الأرض المقرفة التي تنبعث منها روائح المأكولات الفاسدة ، والفضلات البشرية وظلام البؤس والشقاء يخيم عليها يقول الكاتب على لسان جابر: «لم تعد هناك صيانة لم تعد هناك كهرباء.. في النهاية وقفت هذه الوحوش الصدئة النائمة للأبد» [1]، وهنا يشير الروائي إلى الدمار الذي خلفه النظام الرأس مالي، وجشع رجال الأموال حيث نهبوا كل ما تملكه هذه المدينة وهمشوا سكانها ويؤكد الكاتب على المأساة التي تعيشها الشخصيات في المكان الديستوبي من خلال حديثه على لسان إحدى الشخصيات: «بالنسبة لنا لم يعد هناك مل يدعى مجار.. نحن نتصرف.. تعتمد معظم البيوت على (الترنشات) وهناك عربة تكسح هذه ثم تتخلص منها في موضع غير بعيد، بعض الناس بلا بيت أصلا لذا لا تشكل له المجاري مشكلة» [2].

فهم يفتقرون في هذه الأرض البائسة لأبسط ضروريات الحياة، لدرجة أنّ السكان يقضون حاجاتهم في الخلاء.

كما اتخذ "أحمد خالد توفيق" من مدينة الأغيار فضاء واسعا صور لنا من خلاله التعاسة والقهر الذي تعيشه الطبقة المظلومة، والذي انعكس عليها بانتشار الأوبئة والانحطاط الأخلاقي والآفات الاجتماعية، فقد كان لهذا المكان وتركيبته انعكاسا واضحا على نفسية الشخصيات، وهذا ما نلحظه من خلال مجموعة الإحصائيات الواردة عن أخبار هذا المجتمع الذي استسلم لظلمات الجرم والفساد يقول الكاتب: «كشف المصدر الصحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن ارتكاب 172 جريمة عنف ضد النساء (...)، 150 جريمة قتل بينهم 6

[1] الرواية، ص65.

[2] المصدر نفسه، ص86.

جرائم اقترنت بالذبح، 3 جرائم اقترنت بحرق الجثث، وجاء الدافع لارتكاب تلك الجرائم: بسبب الشرف-هروب الزوجة-خيانة الزوجة- الشك في سلوكها-الغيرة...» [1]

وقد كانت شخصيات المكان الهامشي مزيجا من الشخصيات الهشة ذات التشوهات النفسية العميقة، والتي أفرزت لنا فردا غير سوي تنحصر جل تصرفاته في العنف، والتعدي والعدوانية والشجارات السوقية المرفوقة بالأسلحة البيضاء، وكل ذلك كان سبب نقص ثقتهم بإمكانية تغيير ظروفهم نحو الأفضل.

فالتشوه الكبير في المكان الديستوبي قد لعب الدور الكبير في تشويه عقلية سكانه، فتعرض سكان مدينة الأغيار لأحداث ضاغطة في بيئتهم أثار فيهم مشاعر القلق وعدم الرضا والتشاؤم ومشاعر الدونية وفقدان الأمل بالمستقبل، بالإضافة إلى الشعور بالظلم والغربة عن كل ما يحيط بهم، حيث أنّ سلوك الانتحار كان من أكثر الظواهر المنتشرة عندهم لقول الروائي: «لماذا لا ننتحر؟.. لا أعرف.. الانتحار يبدو سوقيا و(بلدي) جدا.. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار.. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه.. يا للسوقية..! » [2]، إذ إن انتشار العنف في المكان الذي تنتمي إليه هذه الشخصيات أثر على نفسيتها وأدى إلى اضمحلال أخلاقها وأفقدها التوازن ، ودفع بها إلى تبني نوعا من الاضطراب السلوكي الذي يلحق الضرر بالذات وبالمحيطين بها.

ويوضح لنا الكاتب عادات ونمط حياة سكان مدينة الأغيار وأسلوبهم في التعامل والتعايش مع بيئتهم القذرة عندما يقول: «العادات الحميدة تقتل هنا لا بد أن تبصق على الأرض من حين لآخر.. تتحسس عضوك التناسلي من فوق الثياب من وقت لآخر.. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل» [3].

---

[1] الرواية، ص81.

[2] المصدر نفسه، ص31.

[3] نفسه، ص116.

وهذا التصوير ما هو إلا رؤية واضحة لأثر المكان على التركيبة الفسيولوجية والنفسية لسكانها؛ حيث إن مدينة الأغيار أصبحت مجرد مكب للنفايات، يعيش فيها مجتمع انحدر حاله وأصبحت معيشته مماثلة للحيوانات الجرباء.

كما أنّ مدينة الأغيار تعتبر سوقا استهلاكية لا بئس بها بالرغم من الفقر المنتشر يقول: «حتى لو كان يعاني الفقر فإنّ كثافته السكانية تسمح بكل شيء.. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرا...» [1]، إذ إن الكمية الهائلة في عده السكان تسمح بعدم الاكتفاء الذاتي وزيادة الاحتياج للغذاء، فالسكان يعانون من انهيار اقتصادي واجتماعي كبير، حيث أنّهم لا يخضعون لقانون محدد ولا يتحكمون في الكثافة غير الطبيعية، وهذا ما جعلهم يتساوون في حالة الفقر، وخرب نظام مدينتهم وعمّت الفوضى والعشوائية مما تسبب في إلغاء قانونهم وأخلاقهم، ويصور لنا الكاتب ذلك من خلال صورة بيانية قمة في الروعة تجسد العلاقة بين سوء المعيشة والفقر الذي يدفع بالإنسان بالتخلي عن إنسانيته والعيش وفق قانون الغابة بعد أن قتلت أخلاقه يقول: «لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء» [2]، بمعنى آخر أنّ الأخلاق في هذا المكان قد زالت تدريجيا كما يزول المعدن بسبب تقطير الماء فوقه لمدة طويلة من الزمن.

وهذه المدينة والمروعة كانت مكانا يساعد على تنمية الأمراض العضوية والنفسية، فنجد على سبيل المثال شخصية صفية التي تعاني من مرض "الدرن" الذي فتك بها وجعل جسمها هزيلا وهي ما تزال طفلة صغيرة في مقتبل عمرها يقول: «ثم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنّها ستبصق رئتيها خارجا.. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر: هذا درن.. إنّه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال» [3].

---

[1] الرواية، ص107.

[2] المصدر نفسه، ص130.

[3] نفسه، ص111.

وعليه فالتلوث الذي عمّ مدينة الأغيار جعل سكانها يعانون من الإرهاق الروحي والجسمي.

وبالرغم من أن عالم الأغيار عالم من نسج خيال الكاتب إلّا أنّه يحتفظ بمعاني وتشكيلات تتطابق والواقع المصري؛ فالمكان الديستوبي ما هو إلا انعكاسا واضحا للأنظمة السياسية العربية الديكتاتورية الفاشلة والتي خلفت هذا الخراب الموحش، وتركت في نفسية شخصيات هذا العالم الخوف والرعب والصدمة، لدرجة أنّهم لا يثورون على أوضاعهم المتردية بل استسلموا وأذعنوا لها وأصبح صوتهم لا يسمع ولا يعلو يقول الكاتب: «اعتقادي أنّ هناك وعدا آخر.. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملين والأفاقين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومي واحد هو مصر.. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة.. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدا.. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقا.. كلهم هنا يا صاحبي» [1].

والكاتب من خلال هذا القول يوضح السبب الذي جعل من مصر دولة متخلفة، والشخصية المصرية غير منتجة تعاني من الكسل والخمول ومستهلكة بالدرجة الأولى.

والتركيب العمراني لمدينة الأغيار يعتبر تركيبا شعبيا بكل معنى الكلمة، حيث طغت عليه ملامح البناء الفوضوي العشوائي، ولاسيما الأكواخ والعشش، وعبثية هذا المحيط انعكست على نفسية السكان وأدخلتهم في حالة من الإحساس بالوهن والضعف والكآبة وأدت إلى انخفاض أدائهم الإنساني يقول: «ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين» [2].

ويقول أيضا: «كانت حالة الكوخ من الداخل أسوء.. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي» [3].

---

[1] الرواية، ص84.

[2] المصدر نفسه، ص98.

[3] نفسه، ص99.

فالشكل الخارجي للكوخ يوحي لنا بالحالة التي آل إليها المجتمع المصري المهمش «لكن القيمة الجمالية والفنية للأكواخ لا تكمن في تلك الوظائف الخارجية، وإن لم تخرج عن إطارها بحكم ما تفرضه تلك الوظائف من تغيير مستمر في الشكل الداخلي والخارجي للكوخ، بل تكمن ببعدها الفني أولا، باعتبارها وعاء شعبيا احتوى تراكيب اجتماعية ، أعطت لجزئياتها قيما جمالية خاصة بها لوحدها» [1].

وفي الأخير يمكننا القول بأنّ هذا المكان يحمل دلالات اجتماعية ونفسية للشخصيات الديستوبية.

وقد عقد "أحمد خالد توفيق" مقارنة بين مدينة يوتوبيا ومجتمع مدينة ديستوبيا، وأشار إلى أن العنف والجريمة وتعاطي المخدرات ظواهر شائعة بطريقة مبالغ فيها في كلا المدينتين، وكذلك السلوكات الهمجية وبين اختلاف غاية كل مجتمع من هذه السلوكات؛ فالظروف القاسية والحرمان الذي يعيشه سكان الأغيار والقهر الذي يمارس عليهم من قبل محتكري حياة الرفاهية، وتهميش السلطة لهم جعلهم يتبنون هذه السلوكات لينسوا واقعهم، أما سكان يوتوبيا فكانت هذه السلوكات مجرد تكملة للغرور الناتج عن المثالية التي يعيشونها يقول:

«الأهم أنّ كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل..

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة..» [2].

---

[1] ياسين النصير، الرواية والمكان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م، ص55-56.

[2] الرواية، ص132.

أما النقطة الوحيدة التي لا يتشارك فيها سكان مدينة الأغنياء وسكان مدينة الفقراء هي نسبة التكاثر، حيث يعاني سكان مدينة يوتوبيا من انخفاض ملحوظ من النسل رغم أنّهم يعيشون في مدينة تتوفر فيها جميع متطلبات الحياة، بالإضافة إلى المال المترف في حين نجد سكان مدينة الأغيار في نمو مستمر ويزداد عندهم معدل الولادة رغم الظروف الحرجة التي يعيشونها وانعدام أبسط متطلبات الحياة في مدينتهم ،وانتشار الأوبئة والمجاعة فهم في تزايد مستمر في عدد السكان، يقول الكاتب على لسان الفتى اليوتوبي: «الغريب أنّهم تكاثروا بسرعة لا تصدق معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد.. ينجب الرجل عشرة أشخاص يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع لكن الزيادة مستمرة بالرغم من كل شيء. وبذلك يؤكد الكاتب على وجود نقاط التشابه والاختلاف بين المدينتين رغم انفصال مدينة يوتوبيا بجدار وحراس يحمونهم من بحر الفقر الغاضب والخانق كما يسميه (أي مدينة الأغيار).

2/ اللغة:

تعد اللغة الأداة التي يستعملها الإنسان ليعبر بها عن كافة مجالات حياته فهي الجسر الذي يربط بين أفكاره والعالم الخارجي، ويعد الأدب من بين أهم المجالات التي تلعب اللغة فيها الدور الكبير في تبليغ الرسالة بطريقة فنية وجمالية، وبما أنّ الرواية جزء لا يتجزأ من الأدب؛ فإنّ اللغة تعد من أهم العناصر التي تبنى عليها هته الأخيرة فمن خلالها يعبر المبدع عن مختلف شرائح المجتمع، وهي المكون الجمالي الذي يؤثر به على الملتقى، وهذا ما أكده الناقد "عبد المالك مرتاض" بإشارته لأهمية وقيمة اللغة في العمل الإبداعي فاللغة في رأيه: «أساس الجمال في العمل الإبداعي من حيث هو، ومن ذلك الرواية التي ينهض تشكيلها على اللغة (...)انه لم يبق للرواية شيء غير جمال لغتها وأناقتها وأناقة نسيجها» [1].

[1] عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية، ص100.

أي أنّ اللغة هي العنصر الجمالي الأهم في الرواية ، ومن خلالها يلوج الكاتب إلى وجدان الملتقي ويشده ويستميله إلى قراءتها، وقد تطور استعمال اللغة في الرواية العربية بتطور مقتضيات المجتمع العربي، حيث يلجأ الكاتب إلى المزج بين "الفصحى والعامية" وذلك ليمكن القارئ من الوصول إلى أدق تفاصيل حياة الشخصيات ويعيش أحوالهم النفسية، ويتلافى من خلال اللغة واقعهم ومشاكلهم وإيديولوجياتهم ونجد هذه الرؤية كذلك عند "عبد المالك مرتاض" عندما تطرق إلى مستوياتها في قوله: «لغة الكتابة ضربان اثنان (...) للضرب الأول سرد ولغته الفصحى، الضرب الثاني حوار ولغته العامية...» [1]، ومن خلال ذلك يقوم الخطاب الروائي على الفصحى وهي: «اللغة الرسمية وعنصر مهم في الحياة الاجتماعية وأداة التواصل والتعبير، ورمز للهوية الفردية والاجتماعية والثقافية فهي لغة القرآن الكريم والتراث الشعبي جملة» [2].

أما العامية فهي المستوى الأدنى من الفصحى، وبها يقترب المبدع من تصوير الفئة العامة من المجتمع «وهي اللغة التي يتعامل بها أفراد شعب معين في حياتهم اليومية للتعبير عن أغراضهم وهي اللهجة المنطوقة في عصرنا الحاضر» [3].

ونظرا لأهمية عنصر اللغة في السرد الروائي اتخذه "أحمد خالد توفيق" ليبين لنا أنّ كل شخصية في عمله الفني، تميل إلى التميز بأسلوبها الخاص الذي يعكس نمط تفكيرها، وهذا ما دفعه إلى توظيف أشكال الكلام الشفوي السائد في اللغة الاجتماعية؛ أي اللهجة المحلية المصرية وتوظيفه كذلك للعربية الفصحى.

فالعالم اليوتوبي والديستوبي الذي يرغب الكاتب في تصويره لنا، والحالة النفسية التي تعيشها الشخصيات في هذين العالمين قد برزت بشكل ملحوظ من خلال مستويات اللغة الموظفة في الرواية، وهذا ما نلحظه عندما اختار "أحمد خالد توفيق" شخصيتين من هذين العالمين لسرد الأحداث، وهما شخصيتي "علاء" من يوتوبيا و"جابر" من

---

[1] عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية ، ص115.

[2] عكاشة محمود، عالم اللغة، مدخل نظري في اللغة العربية، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2006م، ص96.

[3] يعقوب اميل بديع، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم، بيروت، لبنان، 1982م، ص144.

الأغيار، فالكاتب يحدد لكل منهما قاموسا لغويا تدور حياتهما حوله ، وهذا القاموس قد كان له الفضل في تحديد سمات كل شخصية وأحوالها الاجتماعية والنفسية، وكذلك حمل في طياته دلالات ومشاعر وانفعالات وعواطف داخلية لكل شخصية، فالكاتب قد اتخذ من اللغة الفصحى وسيلة عبر بها عن الحياة المثالية التي تعيشها شخصيات مدينة يوتوبيا، واستعماله لها ما هو إلا إشارة واضحة منه عن اختلاف المكانة والتفكير عند الطبقة الأستقراطية التي تمتاز بالعيش الرغيد، ويظهر ذلك من خلال مجموعة من الألفاظ والتسميات الدالة على مدى رقي هذا المجتمع أي ألفاظ المدن والتحضر كأسماء البيوت والأحياء التي يمتلكها أثرياء يوتوبيا يقول الكاتب: «منطقة الحدائق.. منطقة المدارس المخصصة.. منطقة المولات.. قصر علوي بك ملك الحديد.. المطار الداخلي »[1].

والكاتب يبرز بقوة الحقل الدلالي الاجتماعي ، ليعبر به عن الحالة المتطورة التي يعيشها سكان يوتوبيا، كما نجده يستعمل الألفاظ المتطورة التي يعيشها سكان يوتوبيا، كما نجده يستعمل الألفاظ اليومية التي توحي بروتين شخصيات هذا العالم: «أصحو من النوم.. أشرب القهوة..أحلق ذقني.. أتناول الإفطار.. ألتهم اللحم الأحمر.. آخذ زجاجة ويسكي من البار.. أرقص..» [2].

كما أنّه لجأ إلى استخدام تسميات وألفاظ خارجة عن إطار اللغة العربية (أي أي أنّها ليست عربية الأصل) ،وهو يعتمد في ذلك على قدرة اللغة العربية المرنة ليؤكد على أنّ الشخصيات اليوتوبية شخصيات هجينة تعاني من عقدة الاتباعية وسيطرة الغرب على الشرق، فقد تم تنويمهم وأصبحوا يقلدون كل ما هو غربي ومحيت شخصيتهم الشرقية وانصهروا لا شعوريا في روتينهم الممل وأصبحتهم ردات فعلهم عبثية لا قيمة لها فنجد بأنّ الروائي قد اختار الأسماء الأجنبية مثل: لارين، جرمينال، مايك، كاتي، سوزان...

[1] الرواية، ص22.

[2] المصدر نفسه، ص26.

بالإضافة إلى مجموعة من الألفاظ الأجنبية الدخيلة على المجتمع اليوتوبي الذي يواكب التطور الغربي "كالبايرول" وهو نوع من المواد الكيميائية التي يحتكرونها ويقوم عليها اقتصادهم، و"الفلوجستين" وهو نوع من المخدرات بالإضافة إلى لفظة الليبيدافرو، شركة سيفكو، مول إليت، أغاني الأورجازم وهي ألفاظ مشهورة عندهم.

ويظهر اختلاف لكنة الأغنياء عن لكنة الطبقة الدنيا من خلال قول الكاتب وهو يصف فتى يوتوبيا: «لو سمعوا لهجتكم المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك » [1]، فشخصيات يوتوبيا تتميز في كلامها بالفصحى عن الشخصيات الديستوبية، علاوة على ذلك الفصحى تبرز قوتهم ودرجة نبل حياتهم ورقيها مقارنة بالطبقة المقهورة والمدمرة (أي عامة الشعب).

فقد كان للعبارات الفصيحة دورا كبيرا في إدراكنا لنمط عيش وتفكير شخصيات يوتوبيا، كما نجد ألفاظ: الإثارة الإثم، التعدي، خرق القواعد، التحدي، المشاغبة، المخالفة، الهدم، الأدرينالين، الصدمة، الدهشة... وهي ألفاظ توحي بالحركة والانفعالات وعدم التوازن الموجد في حياة اليوتوبيين.

أما في مدينة الخراب فقد لجأ الروائي إلى توظيف اللغة العامية ، وحاول من خلالها الغوص في أعماق هذه المدينة، وصور لنا الجانب الاجتماعي والنفسي الذي تعيشه شخصيات الأغيار، حيث غلب استعماله للمعجم الشعبي، فهناك جملة من الألفاظ الدالة على استعماله للهجة المصرية مثل لفظة "مرمطة" والتي تشير إلى حياة البؤس والشقاء التي تعيشها هته الشخصيات، فجل الألفاظ القبيحة والسوقية ما هي إلا انعكاسا جليا للحالة النفسية التي آلت إليها الشخصيات الديستوبية في عالمها السوداوي وقوله كذلك، "ملها" و"على راسنا من فوق" و"يلزمك" وغيرها من الألفاظ العامية التي عبر بها عن الاختلاف والتباين الموجود بين عالم الأغيار وعالم يوتوبيا.

أما عبارة «استمري.. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يوما بعد يوم » [2] تعد النقطة الفاصلة التي توضح الفرق الموجود بين العالمين كما أنّ هناك كلمات قد اضمحلت من حياة كل فريق منهما فالخطر والموت كلمات تم

---

[1] الرواية، ص142.

[2] المصدر نفسه، ص166.

تجاوزها في يوتوبيا، وكذلك الدهشة والاشمئزاز والتوجس كلمات انتهت في مدينة الأغيار، وذلك عائد إلى نفسيتهم ومشاعرهم المتضاربة، فتطور شعورهم النفسي كان سببا في إلغاء الإحساس بهته الكلمات يقول "جابر" وهو يصف "علاء" و"جرمينال" من أهل يوتوبيا: «هنا رأيت بؤسا وشقاء وجوعا غير أصيلين.. رأيت خوفا وهذا غير معتاد .. في عالمنا لا ترى الخوف كثيرا إنّما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط .. وقفت بعيدا أراقبهما.. رأيت الدهشة.. رأيت الاشمئزاز.. رأيت التقزز.. رأيت التوجس..هذه كلها عواطف دخيلة على عالمي» [1].

وإذا تمعنا في هذا المقتطف السردي، تبدو لنا هذه الألفاظ بما تحمله من دلالات ومشاعر وانفعالات صورة مجسدة لنمط كل شخصية ،كما نلحظ أن العبارات التي تتلفظ بها شخصيات الديستوبيا ألفاظا تحمل انفعالاتهم وتشاؤمهم وسلبية تفكيرهم، فهي في مجملها تركيبة من الاندحار والامتعاض الذي تعيشه.

علاوة على ذلك نجد مجموعة من الألفاظ القذرة مثل: «نحن تحت رحمتهم يا حلوف» ، «ألم تنتهي بعد أيها الخنزير»» قومه من الرعاع« » ابن الزانية» «أنت كذاب ابن كذاب» « أصدقائه الحثالة» ،كما استعمل الكاتب العبارات المقطوعة وهي تكملة للشتائم مثل :« لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد الـ (...)» «أنت لا ترى شيئا يا ابن (...) لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك » [2] «إنهم أنجاس ولاد (...)»...

فمعظم الشخصيات الديستوبية تعاني من اضطرابات نفسية تمثلت لها في حالة من العنف والغضب وهذا ما يجسده خطابهم اللغوي اليومي.

ونجد كذلك أنّ معظم الشخصيات في مدينة الأغيار تحمل أسماء شعبية أهمها: جابر، صفوت، سمية، صفية، عبد الطاهر، السرجاني، شوكة ، وهي أسماء ترمز للمناخ الشعبي المصري وتشير للانتماء الفعلي للهوية المصرية الشعبية التي أخفاها الواقع الاجتماعي والاقتصادي، كما أنّها تعبّر عن الثقافة الشعبية التي اضمحلت في عالمهم السوداوي.

---

[1] الرواية ، ص88.

[2] المصدر نفسه، ص96.

وقد كان لهذه الأسماء دورا كبيرا في التأثير على الحياة السوسيو نفسية لشخصيات هذا المجتمع، كما كانت مرآة عاكسة لواقعهم، فـ"أحمد خالد توفيق" قد تعمد اختيار هته الأسماء لكي يبرز لنا التناقض الواضح بين العالم اليوتوبي والديستوبي وذلك باعتبار أن «اللغة بصفتها بيئة حية وملموسة يعيش فيها وعي الفنان بالكلمة» [1] فالكلمات كان لها الأثر البالغ في إظهار الواقع الاجتماعي والنفسي للشخصيات.

أما الأفعال التي استعملها الكاتب في الجانب اليوتوبي هي أفعال إرادية فيها نوع من الحرية في اختيار الحدث الذي تقوم به كل شخصية، باعتبار أنّها تنطلق من ذاتها لتجسد واقعها مثل: (أصحو، أفرغ، أضحك أدخن، أشرب، أعالج، أتناول، أبصق، أدس، أرقص، أقرأ، أصب...) فالشخصية اليوتوبية تقوم بكل ما يمليه عليها عقلها وتفكيرها ولا تخضع لأي سلطة أو حتمية؛ وهذا ما جعلها شخصية أنانية وسريعة الانفعال.

في حين نجد أنّ الأفعال التي استخدمها الكاتب في الجانب الديستوبي أفعال غير طوعية ناتجة عن القهر والمعاناة مثل: (تقاوم، تركل، تبصق، تصرخ، تولول، تبكي، تسب، تلعب، تعض...)

وعليه فالشخصية الديستوبية تعيش حالة من الضغط والوهن تجبرها على تبني نمط سلوكاتها.

كما أنّ الحقل الدلالي الذي يحمل الأمل والتفاؤل والإيجابية قد اختفى من عالم الأغيار؛ فلا مكان سوى للكلمات والعبارات الدالة على الفناء والخراب والوحشية والتي بدورها تعكس نفسيتهم المحبطة ،ويتجسد ذلك في تكرار الكاتب على لسان بطل المدينة الديستوبية "جابر" التنبؤ بالموت ،وهو إشارة للمستقبل المظلم الذي لا أمل للحياة فيه يقول: «سأموت خلال يومين أو ثلاثة...» [2]ويقول أيضا: «أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد لا أكثر فلا تقل العكس» [3].

---

[1] ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: (محمد برادة)، ط1، دار الفكر للدراسة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م، ص60.

[2] الرواية، ص72.

[3] المصدر نفسه، ص131.

ويتوكأ "أحمد خالد توفيق" في بنائه اللغوي على وسيلة هامة وهي (الأغنيات) فلكل عالم أغنية خاصة به تستمتع إليها شخصياته، فاليوتوبيين يستمعون لأغاني الأورجازم، بينما الأغيار يستمعون للقصائد الشعبية الخاصة (بعبد الرحمان الأبنودي) ولكل منهما دلالة خاصة، فكلمات الأغاني التي تستمع إليها الشخصية اليوتوبية تحمل دلالات جنسية واضحة ومباشرة فيها رمز للنشوة ،وهي الغاية الأساسية التي تسعى إليها هته الشخصيات، كما أنّ الشخصية اليوتوبية عند سماعها لكلمات هذه الأغاني تصبح ميالة للعنف في كل سلوكاتها، فتركيبة هذا الخطاب تحمل في طياتها كل معاني الجنس، العنف، التعدي على حدود العقل والمنطق تقول إحدى هذه الأغاني:

«والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة..

إنّ عناقي المشبوب سوف يهشم ضلوعك.. سوف أعتصر روحك ذاتها..

عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين..

سوف تسألها الملائكة عما حل بها..

ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته..

الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح..» [1]

وتستمر هته المقطوعات في أجزاء الرواية بنفس الطريقة ، فتكون جزءا رئيسيا من البنية الثقافية والانفعالية التي تكونت منها شخصيات هذا العالم ، فهي توحي بأهدافهم ودوافعهم في الحياة، ثم يتحول غنائمهم لها إلى قناعة واعتقاد تنتج عنه استجابة فعلية ، وهذه الأغاني كانت الدافع الأول الذي جعل من شخصية شبان يوتوبيا شخصية عدوانية ودفعت بهم إلى تجربة صيد البشر في عالم الأغيار يقول الكاتب:

«تنسحق الشمس إذا تطؤها أقدام الكوكب الأحمر..

تصرخ الملائكة خوفا..

[1] الرواية، ص105.

أنت فريستي..أنت لي..

فقط عندما تصير جزءا من خلاياي بعد الافتراس..

عندها تعرف معنى الأبدية..» [1]

فيلعب هذا الخطاب الدور الكبير في إيصال رسالة لا شعورية لعقول مراهقي يوتوبيا.

أما قصيدة "عبد الرحمان الأنبودي" والتي جاءت مقسمة في فصول الرواية الخاصة بالشخصيات الديستوبية فدلالتها تتمحور حول الشعور بالفارق والانقسام والطبقية والدونية، عن الطبقة العالية والمتحكمة في كل شيء والمستمتعة بكل شيء ، فهي تعبر عن حالتهم النفسية المدمرة جراء هذا الانقسام والكآبة والإحباط الذي يعيشونه في خضم الظروف الاجتماعية القاسية يقول الشاعر:

«احنا شعبين.. شعبين.. شعبين..

شوف الأول فين والثاني فين؟

وآدى الخط ما بين الاثنين بيفوت

أنتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها

في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها

باتت وش وضهر...

بطن وصدر..

والريحة سبقت طلعة أنفاسها

واحنا ولاد الكلب الشعب

احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب

[1] الرواية، ص43.

والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب

والموت في الحرب» [1]

فمن خلال كلمات هذا الشعر العامي يمكننا أن نتصور مدى معاناة هذه الفئة من البشر، فانجذاب شخصيات الأغيار إلى سماع هذا النوع من الشعر، كان سببه أنّه يمثل معاناتهم النفسية والاجتماعية وهو خطاب نشعر بلغته العامية المصرية وهو صوت مجتمع الأغيار المهمش.

والملاحظ على هذين الخطابين أنّ، كلاهما يعطي للموت قيمة، فالخطاب اليوتوبي هو خطاب درامي ورغبة الموت فيه منبعثة من الإثارة واللذة والمتعة، أي أنّه خطاب يبحث عن الكمال الخيالي من خلال تجربة موت أنيقة. أما الخطاب الديستوبي فيحمل معنى آخر للموت؛ وهو الراحة والحلم الذي يخلص شخصياته من المعاناة والدمار والمآسي التي تعيشها، حيث لم يعد هناك طعم للحياة، بل مجرد أجساد تنتقل بلا أرواح.

3/ الدين:

يمثل الدين جزءا كبيرا من ثقافة أي مجتمع من المجتمعات، وهو يؤثر في تركيبتها ويحدد هويتها، كما يتفاعل مع شخصية الفرد لذلك يعد مظهرا هاما في المجتمعات اليوتوبية والديستوبية على حد سواء، كونه يمتلك القدرة الكبيرة في تحريك شعور الإنسان، ويتحكم فيه، فهو قوة ناعمة تضغط على أفكاره وتتلاعب بعواطفه وشخصيته لذلك نجده متواجدا بقوة في الرواية العربية، و"أحمد خالد توفيق" قد أعطانا التصور الديني لدى شخصيات العوالم التي وظفها، فمظاهر الدين في مدينة يوتوبيا تختلف عن مظاهر الدين في مدينة الديستوبيا ، وهذا الاختلاف راجع إلى تفكير الشخصيات، إلا أنّ الشيء الوحيد المشترك بينهما هو تأثير الدين على نفسية هته الشخصيات.

[1] الرواية، ص150.

فالدين كفكرة يختلف تعريفه: فحسب فريدريك انجلز" frederick Engels ": «هو انعكاس خيالي في رؤوس الناس لتلك القوى الخارجية التي تتحكم بوجودهم اليومي»[1]، والحياة الإنسانية عموما لا تخلو من دين معين يتحكم ويؤثر فيها وإن تعدد هذا الدين واختلفت طرقه وأهدافه وذلك يعود لاختلاف درجة تطور المجتمعات الإنسانية، فهو يحتل مساحة واسعة في تحريك هته المجتمعات.

ففي مدينة يوتوبيا يعد الدين مظهرا واضحا اتخذته الشخصيات كي تعبر عن هويتها وتحمي به تفكيرها لذلك فاليوتوبيين يتمسكون به كي لا تزول نعمة الرأس مالية التي يعيشونها في وسطها، وهم يستخدمونه كقناع يختبؤون وراءه، ليبرزوا أحقيتهم في امتلاك المثالية، وهو وسيلة يعززون بها ثقتهم بأنفسهم يقول الفتى اليوتوبي: «عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن السبب –كما أعتقد- هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة»[2].

فنفسيتهم المتوترة من فقدان الحياة المثالية في لحظة، وشعورهم بالضغط والخوف دفع بهم إلى اللجوء للدين وتبنيه وفق منظور خاص بهم، أي أنّهم يخافون من القوة التي فوقهم أن تؤثر على تقدمهم، وهذا ما أكده عالم النفس سيغموند فرويد" Sigmund freud"والذي يربطه بوهم الخوف المغروس في عقول البشر فإنّ الدين حسبه لا «ينبع من عجز الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة في الخارج والقوى الغريزية داخل نفسه وينشأ الدين في مرحلة مبكرة من التطور الإنساني»[3].

فطبقة الأغنياء يتمسكون بالعبادة لأنّهم يعتقدون أنّها تحمي نجاحهم وتزيد من ثروتهم وتطورهم، أي أنّ التدين بالنسبة لهم مجرد وسيلة يحمون بها أملاكهم يقول الكاتب: «هناك يحترفون الدين لأنّهم يخشون أن يضيع هذا كله وهم لا يعرفون لماذا وكيف استحقوه»[4]، فالرعب الذي تتصارع معه هذه الطبقة دفعها إلى إعطاء رؤية

---

(1) بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1987م، ص11.

(2) الرواية، ص51- 52.

(3) إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، تر: (فؤاد كامل)، مكتبة الغريب، القاهرة، ص15.

(4) الرواية، ص132.

مزيفة للدين، وهذا التصور أكده "كارل ماركس" karl Marx «الذي يعتقد كذلك بأنّ الدين بعدا إيديولوجيا يخدم مصالح الفئات الحاكمة ويبرز سلوكها على حساب الآخرين»[1]، فماركس يرى بأنّ الطبقة الحاكمة تستعمل الدين كوسيلة للدفاع عن مصالحها، وهذا ما أكده الكاتب من خلال الشخصيات اليوتوبية التي طغت على عقليتها البراغماتية.

فالشخصيات اليوتوبية تخدم الله ليخدمها، أي أنّهم لا ينظرون للدين على أنّه طاقة روحانية بقدر ما يفسرونه ماديا يقول الكاتب: «هناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع.. الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور»[2] وهذا ما أكده عالم الاجتماع "ماكس فيبر" Max weber"حيث يرى أنّ الدين لا يمثل بالضرورة قوة محافظة بل إنّ بعض الحركات والتوجهات الدينية التي تستلهم جانب من تعاليم الدين قد أحدثت تحولات اجتماعية مثيرة في في المجتمعات الغربية (...) الذي أسهم في انطلاق التنمية الاقتصادية الغربية يصدرون عن الرغبة في خدمة الله وكان النجاح المادي بالنسبة إليهم علامة من علامات العناية الإلهية»[3].

كما يعد الدين عند الشخصيات اليوتوبية مظهرا من مظاهر التباهي والتفاخر، والهدف منه هو تغطية العقد النفسية والمشكلات التي يعانون منها يقول الكاتب: «صورة الحاج عبد السميع النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلى وجهه ابتسامة وقور متئدة، رائحة عطره الثمين الفاخم ومسبحته الذهبية.. يبدو أنّ هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلا... كل هذا الورع لن يقنعني بأنّهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الوقت.. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم»[4]، ففكرة التباهي بالدين المجسدة في عقولهم تعد المحرك اللاشعوري لتصرفاتهم

---

[1] أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، تر: (فايز الصباغ)، ط4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005م، ص585.

[2] الرواية، ص21.

[3] أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ص582.

[4] الرواية، ص21.

والمسير الأساسي لنظام حياتهم، فهي بمثابة حجة تحجب سلوكاتهم الشاذة وتحمي مكانتهم المرموقة، وهذا يتوافق ونظرة عالم النفس "يونج" yong" الذي يربط الدين باللاوعي الجماعي "Collective Unconscions" حيث يرى بأنّ «الدين واللاشعور نتيجة وهي أنّه بالنظر إلى طبيعة العقل اللاواعي يكون تأثير اللاشعور علينا ظاهرة دينية، لأنّ كل منهما تعبير عن استيلاء قوة خارجية علينا»[1].

فالتلاعب الجريء بالدين عند الشخصيات اليوتوبية، يرجع إلى حالاتهم النفسية المضطربة التي تتحكم في معتقداتهم.

وإنّ طغيان الشهوانية والأنانية والكسل على هذه الشخصيات وخاصة الشبان جعلهم ينظرون للدين نظرة غير آبهة، فالعبثية واللامبالاة التي تسيطر على تفكيرهم قد أفقدتهم الاهتمام بالأمور المهمة ونتائج الأحداث التي من حولهم، كما أنّ تداخل المعتقدات في مجتمعهم أدى إلى ضعف هويتهم يقول: «لا يمكنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نوع (المسيح الحي) أو يصل على رسول الله، فحتى الأسماء صارت عادية محايدة لا تدل على شيء..(فريد).. (عوض).. (عماد)، لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنّه لا يعرف شيئا اسمه التفرقة الدينية، لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحا... لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلما أو مسيحيا إلا عندما تعلم أنّك ذاهب لعمرة أو ينكشف ساعدك ليظهر وشم الصليب..»[2].

ومن خلال ما تقدم نلحظ بأنّ التمازج الرهيب في تركيبة المجتمع المصري العقائدية قد خلفت مجتمعا متشتتا من كل النواحي ينظر للسلوك الديني على أنّه مجرد تنظير لا تطبيق.

أما فيما يتعلق بالقيمة الأخلاقية عند أفراد المجتمع اليوتوبي، فلهم رؤية خاصة نحوها؛ أي أنّها مرتبطة بقانون المال الذي يستحوذ على تفكيرهم، فيمكنك أن تتجاوز الأخلاق والمثل العليا في هذا المجتمع ما دمت تمتلك المال

[1] إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ص33.
[2] الرواية، ص65- 66.

كما أنّ رغبتهم في ممارسة المكبوتات جعلتهم ينظرون للأخلاق نظرة نسبية تتكيف ورغباتهم، حيث أنّهم لا يعتبرون الأخلاق الدينية والإنسانية أمرا إلزاميا يبنون عليه نمط حياتهم ويقيدون به حريتهم، وهذا ما قال به أفلاطون Platon": «إنّ سلوك الإنسان وأفعاله كلها مصادرها ثلاثة: الشهوة والعاطفة والعقل، وهذه القوى الثلاث موجودة في كل إنسان ولكن بدرجات مختلفة، فمن الناس من يكاد يكون شهوة مجسدة تضؤل بجانبها العاطفة والعقل ،وهؤلاء ينغمسون في الحياة المادية انغماسا، ومنهم تكون الطبقة العاملة في الأمة، ومن الناس من يطغى فيه جانب الشعور كالمحارب الذي يقاتل من أجل الانتصار وكفى، وهؤلاء يكونون الجيش والأسطول، وفريق ثالث قليل العدد جدا لا يستمتع في الحياة إلا بالتفكير والتأمل وهو لا يقصد إلا إلى المعرفة وحدها، وهؤلاء هم رجال الحكمة الذين ينشدون العزلة والوحدة»[1].

وعليه فالأخلاق في العالم المثالي حسب أفلاطون تختلف باختلاف التفكير الإنساني، والحكم على سلوكات أفراد هذا المجتمع يكون شيئا نسبيا أخلاقيا، وهذا ما نجده في الشخصيات اليوتوبية التي تعتبر تصرفاتها من الناحية الدينية تصرفات لا أخلاقية، ومن الناحية الإنسانية تصرفات خارجة عن القيم الإنسانية، كالعنف، الاغتصاب القتل العمدي، التحرش الجنسي، الأفعال التعنتية، والظلم، وقد بين ذلك الكاتب في كثير من المواضع في الرواية يقول: «ليس صيد البشر غريبا إلى هذا الحد..أنا قرأت عن الموضوع كثيرا (...) برغم أنّ الصيد غير قانوني في يوتوبيا فإنّ الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنا.. وهو شعار يوتوبيا العام افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا»[2].

وبالرغم من أنّ القيم موجودة في مجتمع يوتوبيا، إلا أنّ أفراده، يلغون تطبيقها ويتظاهرون بتشريعها فقط، فالقتل العمدي على سبيل المثال يرفضه الدين والمجتمعات الإنسانية، إلا أنّ المجتمع اليوتوبي قد اتخذ منه شكلا من أشكال التسلية والتنفيس عن المكبوتات، فشخصياته يعانون من السادية التي تجعلهم يتلذذون بتعذيب الآخرين

[1] حنا خباز، جمهورية أفلاطون، ص28.

[2] الرواية، ص36- 37.

ورؤيتهم ضعفاء ويموت إحساسهم بالإنسانية ومبادؤها ولا يكترثون للضحية، فهم بلا مشاعر ولا إحساس ويبرز ذلك بقوة في الفعل الذي قامت به إحدى الشخصيات اليوتوبية (راسم) يقول: «(راسم) فعلها (...) اختطف واحدا من هؤلاء الأغيار العاطلين وعاد به إلى يوتوبيا وقضى ورفاقه أياما ممتعة من ملاحقة هذا المخطوف بالسيارة، ثم قتله واحتفظ بيده المبتورة بعدما قام بتحنيطها.. كل واحد من أصدقائي قام يوما ما بهذه الرياضة رياضة: صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين»[1].

ومن المظاهر الشائعة كذلك الاغتصاب والتعدي على الآخر، والاستمتاع بذلك، خاصة اغتصاب الأغيار الذين لا حول لهم ولا قوة، فهم كانوا غير واعين لتعاليم الديانات السماوية والقيم التي وضعها الإنسان على مر العصور لبناء مجتمع متمدن، مما أدى بهم إلى خلق مجتمع موغل في الانحطاط يقول الكاتب: «لكنّها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادا على العنف على كل حال لذا قيدتها تقييدا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي نزعته، كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتيريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال.. اغتصاب مريضة سل !..سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ ربما أحكيها مرارا للأصدقاء، في جلسات الفلوجستين لو عدت سالما»[2].

أما التصور الديني في العالم الديستوبي الفاسد، فهو يختلف تماما عن نظيره في يوتوبيا، حيث أنّ أفراد مجتمع الأغيار قد اتخذوا الدين كذريعة للخلاص من الواقع الذي يعيشونه، فهو الوسيلة الوحيدة للصبر على الحياة المشؤومة التي حكم عليهم عيشها.

والدين يعد بمثابة ذلك الغذاء الروحي والنفسي للشخصيات الديستوبية، وهو منقدهم الوحيد من الفقر والمعاناة والبؤس في عالم الخلد الذي سيكون نتيجة لصبرهم الطويل، وتمسكهم به على أنّه الأمل الوحيد الذي سيغير حياتهم ويحقق أحلامهم بالعيش كرماء بعد الفناء في عالم الجنة العالم المثالي الذي سيكون تعويضا عن

---

[1] الرواية، ص37.

[2] المصدر نفسه، ص164.

عالمهم المهشم يقول الكاتب: «بعض هؤلاء القوم متدين، لأنّ الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت..لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب»[1].

فالكاتب هنا يؤكد أنّ الشخصيات الديستوبية يتمسكون بالدين لكي يرتاحوا نفسيا من المعاناة والفاقة التي يعيشونها، ويعتبر الدين في مدينة الأغيار مخدر يوهم ويعطل تفكير شخصياتها ويحرك شعورهم ويسيرهم دون إرادة منهم، وهو مثل العصا السحرية التي يجذب بها الساحر جمهوره وينومهم، أي أنّ الدين عند الشعوب المستضعفة هو مصدر السعادة الوهمية، ومن خلاله يرضون بواقعهم ولا يسعون للتجديد والتطوير، وإنّما يبقون قابعين في مكانهم ينتظرون الخلاص في جنة الخلد، وهذا ما أكده "ماركس" الذي يقول في إحدى عباراته الشهيرة: «إنّ الدين هو أفيون الشعوب، فالدين يرجع السعادة والجزاء إلى الحياة الأخرى، ويدعو النّاس إلى القناعة والرضا بأوضاعهم في هذه الحياة»[2].

وبالتالي فإنّ حالة اليأس والاستسلام والتشاؤم التي تعيشها شخصيات مدينة الأغيار كان الدين من أبرز العوامل التي ولدتها لديهم، فهم قد وصلوا إلى أوج مراحل الزهد، واعتادوا الألم والمعاناة وبلغوا قيمة الحياة ويطمحون لما هو أعظم بعد الموت.

والأغيار يتخذون من الدين حجة يغطون بها عجزهم عن تغيير أوضاعهم المعيشية ويتجنبون بها الشقاء يقول جابر: «هنا نحترف الدين لأنّنا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن.. العقل البشري لا يستحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جنّ»[3].

فلولا الدين لكان معظم سكان الأغيار انتحروا بسبب الفقر الذي يسيطر على مدينتهم، فهم أصبحوا بلا هوية ليس لديهم قيمة كالحيوانات تماما، وسوف يستعيدون هذه القيمة في العالم غير الدنيوي.

---

[1] الرواية، ص51.

[2] أنتوني غيدنز، مرجع سابق، ص580.

[3] الرواية، ص132.

ورغم طموح الأغيار في نيل ودخول الجنة، إلا أنّهم لم يجتهدوا للوصول إليها بل كانت مجرد أماني، وخير دليل على ذلك هو الجرائم والانحرافات الأخلاقية الموجودة في حياتهم يقول الكاتب: «جريمة تردي الأوضاع الاقتصادية مصروف المنزل –ياميش رمضان– نقل ملكية سيارة– النزاع على الميراث (39) جريمة– خلافات أسرية: رفض خطبة أو زواج– التأخر في إعداد الطعام– خلافات بين الزوجة وأسرة الزوج– إهانة الزوج أو صفعه– إنجاب الإناث...»[1].

ويقول أيضا: «تمثلت الأداة المستخدمة في ارتكاب تلك الجرائم في أسلحة بيضاء (سكين– ساطور– مطواة) أسلحة نارية (مسدس– بندقية، ماء، نار، فئوس، شاكوش، شوم، عصى، حبل، كي بالنار ماسورة حديدية القتل بالخنق»[2].

والمتمعن في الجرائم التي تقع في مجتمع الأغيار يدرك بدوره أنّ الدين كتطبيق حقيقي غير موجود في هذا المجتمع ، فجل الديانات السماوية تنفي وتندد مثل هذه السلوكات المنحرفة والعدوانية، وعلى رأسها الإسلام باعتباره أنّه الدين الغالب على هذا المجتمع يقول عز وجلّ: **{مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}**[3].

فرغم أنّ الدين يرفض مثل هذه الأفعال الشنيعة ويعاقب عليها بشدة، إلا أنّ جل شخصيات الأغيار يقومون بها ويبررون ذلك بأنّهم مسيرون لا مخيرون وهم مقتنعون بقدرهم المحتوم، أي أنّ الأخلاق الدينية والإنسانية قد ذابت وانحلت في ظل الفراغ الروحي وضعف الإيمان الذي يعيشونه، فغياب القدوة الحسنة ودماثة الخلق في هذا المجتمع وانتشار الرذيلة بين أفراده وإصرارهم على الفهم الخطأ للدين جعلهم متخلفين، وأنشأ مدينة عشوائية فوضوية يغيب فيها قانون العقاب والثواب.

---

[1] الرواية، ص82.

[2] المصدر نفسه ، ص83.

[3] المائدة، الآية 32.

ويواصل أحمد خالد توفيق تصوير المنظومة الأخلاقية والدينية في مدينة الأغيار، حيث يتساوى الجاهل مع العالم في سلوكاتهم وتفكيرهم يقول: «على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء، لكنّه صار ظاهرة حقيقية.. صار أقوى من القانون.. أقوى من العرف»[1].

فالأخلاق أصبحت مجرد عبارات صعبة التنفيذ، والمشاكل التي تعيشها شخصيات الأغيار قد جعلتها تخترق حدود التعقل وتتجاوز الدين والعرف، وتحلل لنفسها ما تشاء وتشرع القوانين التي تتماشى مع الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه في ظل الصراع الطبقي ، يقول الكاتب وهو يؤكد على زوال قيمة المثل العليا في هذا العالم السوداوي المظلم: «لا أحد يعيش هنا من دون عمل.. عمل قذر.. عمل حرام.. عمل غير قانوني ليكن ما يكن.. المهم عمل»[2].

فعملية التفكير أصبحت لا تخرج عن الواقع القذر الذي تعيش فيه هذه الشخصيات.

كما أنّ فقر المجتمع الديستوبي وانغماسه في ظلمات الجهل والتخلف جعل أفراده ينظرون للدين نظرة مختلفة، فهم لا يعتمدون عليه كما هو بل يؤولونه ويفسرونه حسب رغباتهم وميولاتهم ويكيفونه مع أفكارهم الجاهلة، وهذا ما أدى إلى انتشار الخرافة والشعوذة والهرطقات بينهم، وجهلهم للمعنى الحقيقي للدين جعلهم يؤمنون ويتمسكون بها ويمارسونها، وهذا راجع إلى اضمحلال العقيدة في نفوسهم وضعفها وانكسارها يقول الكاتب: «كان العنف بسبب الدجل والشعوذة، إخراج جان وعفاريت من جسد الزوجة»[3]. ويقول كذلك: «خليط عجيب مريض من الجنس والدين و الخرافات ونظريات المؤامرة (...) غلاف الجريدة لا يخلو من عبارات كشف المستور وفي الغرف المغلقة والجن والاغتصاب»[4].

---

[1] الرواية، ص54.

[2] المصدر نفسه، ص141.

[3] نفسه، ص82.

[4] نفسه، ص126.

فعلى الرغم من أنّ الدين يرفض مثل هذه التصرفات الشركية ويعتبرها زندقة يقول المولى عز وجل: {**قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**}[1]، إلا أنّ المجتمع المصري الديستوبي يتمسك بها، فقد كانت السبب الرئيسي في التخلف الذي يعيشه أفراد هذا المجتمع، فهو يربطها بهويته وعادات وثقافة المجتمع الأعظم الذي ينتمي إليه وهو المجتمع العربي، وهذه الظاهرة كان لها انتشارا واسعا في البلدان العربية وتأثيرها عليهم قد تجاوز نطاق العلم والدين.

وفي الأخير نستنتج بأنّ "أحمد خالد توفيق" استطاع من خلال "عنصر الدين" أن يبرز لنا تفكير ونفسية الشخصيات، والتباين الواضح بين تركيبة كل من الشخصية اليوتوبية والديستوبية، فكلاهما يتمسك بالدين كمفهوم فقط لكن لكل منهما رؤية خاصة له، وهذه الرؤية كانت نتيجة للحياة التي تعيشها كل شخصية في الطبقة التي تنتمي إليها، وتسعى كل شخصية للتمسك بالدين فقط من أجل خدمة مصالحها، فالشخصية اليوتوبية تجمع بين الثراء والورع، في حين الشخصية الديستوبية تجمع بين الرضا والاستسلام والورع.

كما يؤكد الكاتب على أنّ كلا المجتمعين (اليوتوبي والديستوبي) يشتركان في أنّهما يتخذان الدين كذريعة فقط لتبرير مصالحهم الخاصة، فهم يتعاطون المخدرات ويشربون الخمور، ويغتصبون النساء ويقومون بالزنا، ففي كلا العالمين نجد انحلالا أخلاقيا كبيرا وواضحا، فهم يتسترون وراء الدين ليفجروا غرائزهم المتحكمة بهم يقول الكاتب: «هناك في يوتوبيا تسيل أنهار الفلوجستين.. إنّهم يأكلونه ويشربونه.. إنّهم يعرقونه إنّه طمث النساء وبول الرجال.. صنابير الماء لا ينزل منها ماء بل فلوجستين.. يغسلون أقدامهم في الفلوجستين.. يسقون كلابهم فلوجستين.. لو حدثت ثورة يوما ما فلن تكون من أجل المساواة بل من أجل مطالبة المحرومين من حقهم الطبيعي في الفلوجستين»[2].

---

[1] يونس، الآية 81.

[2] الرواية، ص67.

ويقول كذلك: «أطلقت سبة بذيئة تبا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك، إنّها تجعل النّاس أكثر ظرفا لكنّها تجعلك أكثر تخذلقا وميلا للتفلسف.. تجعلك ابن كلب حقيقي»[1].

وعليه من خلال هذين القولين نلحظ بأنّ العربدة منتشرة في كلا العالمين وبقوة.

[1] الرواية، ص182.

الملحق

1.التعريف بالكاتب: (أحمد خالد توفيق):

الدكتور أحمد خالد توفيق كاتب مصري، ولد بمدينة طنطا بمصر في 1962/10/06م بدأ دراسته في مدينته، ثم التحق بكلية الطب في جامعة طنطا وتخرج عام 1985م، وحصل على الدكتوراه في طب المناطق الحارة عام 1997م من نفس الجامعة، ثم عين مدرسا في كلية الطب بجامعة طنطا.

وهو واحد من الكتاب الذين يتملكون بكتاباتهم تلابيب القارئ ليقتحم عوالم لم يعرفها أو يراها أحد من قبل وتميل أجواؤها إلى الإثارة والخيال العلمي، وأحيانا أخرى إلى الرعب الخالص من خلال لغة رشيقة مختلفة، تتناثر من خلالها حبكة درامية لروايات تربى عليها أجيال وأجيال ،كما يعتبر أحمد خالد توفيق أديب الشباب الأول في الوطن العربي، والذي حبب الكثير في القراءة برواياته المشوقة وأسلوبه المتميز والساخر وشخصياته الفريدة، كما يشتهر أيضا بكتاباته لمقالات سياسية واجتماعية ودورية في العديد من الصحف والمجلات العربية مثل: اليوم الجديد، التحرير الإخباري ، وإضاءات...، كما أنّه كان محبا للترجمة فقدم ترجمة للروايات الثلاثة نادي القتال(Fight club) للروائي الأمريكي تشاك بولانيك، وديرما فوريا (رواية لكريج كليفنجر)، وكتاب المقابر (لنيل جايمان)، بالإضافة إلى ترجمته للرواية الطويلة (أعداء الطائرة الورقية) للأفغاني خالد حسيني إلى رواية مصورة.

وقد أثرت دراسته للطب على كتاباته وشخصياته، فأول شخصية له هو العجوز رفعت إسماعيل وكان طبيبا لأمراض الدم، وكذلك ناقش فترة التكليف للطبيب في المناطق الريفية في كتابه الساخر "الطريق في طب الريف" كما أنّه جعل من أحمد عبد العظيم –بطل سلسلة سخاوي- طبيبا يعمل في الكاميرون حيث أنّه ركز في هذه السلسلة على الكثير من الأمراض وأسبابها وتاريخها، وأحمد خالد توفيق يتمتع بثلاث ميزات أدبية اساسية:

1. أسلوبه السهل الشيق، والذي يكسب العمل إيقاعا سريعا.

2. ثقافته الموسوعية العالية التي تجعل من سلاسله موسوعة مصغرة عند كل من يقتنيها.

3. أفكاره المبتكرة بالنسبة لسياق الرواية العربية.

وهو متزوج من طبيبة أخصائية صدر من المنوفية اسمها منال ولديه منها ابن اسمه محمد وابنته مريم، توفي في 2018/04/02م إثر أزمة قلبية مفاجئة ألمت به عن عمر يناهز 55 عاما.

من أشهر أقواله:

– هل تعرف لماذا صار الجاحظ هو الجاحظ والمتنبي هو المتنبي وتشارلز ديكنز هو تشارلز ديكنز؟ كان الأمر سهلا بالنسبة لهم لأنّه لم يكن في بيوتهم هاتف.

– في حياة كل إنسان لحظة..لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها[187].

من أهم أعماله:

– رواية يوتوبيا صدرت عام 2008م.

– رواية السنجة صدرت عام 2012م.

– رواية مثل إيكاروس صدرت عام 2016م.

– رواية ممر الفئران صدرت عام 2016م.

– رواية شآبيب صدرت عام 2018م.

– قوس قزح (مجموعة قصصية) صدرت عام 2005م.

– الآن نفتح الصندوق (مجموعة قصصية) صدرت عام 2007م.

– حظك اليوم (مجموعة قصصية) صدرت عام 2008م.

– زغازيغ (مجموعة مقالات) صدرت عام 2009م.

– فقاقيع (مجموعة مقالات) صدرت عام 2009م.

– ضحكات كئيبة (مجموعة مقالات) صدرت عام 2012م.

(1) ينظر، وكيبيديا الموسوعة الحرة، http://ar-m-wikipedia.org/wiki يوم: 2020/06/16م، سا30: 19.

2. ملخص الرواية:

تعد رواية يوتوبيا من أشهر أعمال الدكتور المصري أحمد خالد توفيق صدرت عام 2008م، وقد جاءت في 192 صفحة، تدور قصتها حول مصر في المستقبل أي في سنة 2023م حيث تتحول إلى طبقتين الطبقة الأولى طبقة بالغة الثراء، أما الثانية فهي طبقة فقيرة فقرا مدقعا، في حين أنّ الطبقة الوسطى قد اضمحلت تماما.

وتنتمي هذه الرواية إلى "أدب الخيال العلمي" وهي منقسمة إلى خمسة فصول.

تبدأ الرواية بجزئها الأول الذي يحمل عنوان "الصياد" يتحدث هذا الجزء عن علاء وهو ابن "مراد بك" رجل أعمال شديد الثراء ووالدته تدعى "لارين"، وهو شاب يعيش في مدينة يوتوبيا وهي مدينة ساحلية معزولة عن العالم تقع في مصر وتعتبر مدينة الأحلام، وكل من يسكنها لا يحتاج إلى القلق، بل في هذه المدينة يوجد كل أنواع الترف تستطيع فعل كل ما يحلو لك لا للآباء حق السلطة عليك، تجد المخدرات منتشرة بكثرة وبشتى أنواعها وتجد جميع أنواع الانحلال، سكان يوتوبيا لا يفرقون بين الحلال والحرام بل شعارهم هو كل شيء تشتهيه مباح لك دون المساس بنقود أحد، تستطيع أن تمارس جميع الشهوات، حيث يقوم الرجال بعلاقات محرمة مع النساء.

وفي 2023م كل مدن البترول تصبح فقيرة لرخص سعره ولكن يوتوبيا تتحصل على مادة كيميائية اسمها "البايرول" هذه المادة اكتشفتها أمريكا وقامت ببيعها للمدينة الثرية بعقد احتكار مدى الحياة.

وتوجد مدينة أخرى خارج يوتوبيا فقيرة تدعى "أرض الأغيار" وفيها ينتشر الجوع والسرقة والقرف واقتصادها جد منحط، سكانها يعيشون معاناة كبيرة لدرجة أنّهم إذا وجدوا أكلا خاصا بالكلاب لأكلوه.

ويكمل الكاتب الحديث عن علاء وهو الشاب الثري الذي قرأ عدة كتب كي يخالف تفكير افراد مجتمعه، كما كان يحيا حياة الرفاهية حتى تحولت حياته إلى ملل شديد، فأراد أن يكسر هذا الملل من خلال دخوله في مغامرة اصطياد بشر الفقراء من الأغيار، لأنّ الفقراء بالنسبة له مجرد حيوانات بدون أي قيمة بالرغم من تهديدات والديه إلا أنّه لم يستمع إليهما، وفي إحدى الليالي حرض علاء إحدى صديقاته (جرمينال) وضربا فقيرين من

الذين كانوا يشتغلون في يوتوبيا، ولبسا ملابسهما وركبا العربة التي تأخذهم إلى أرض الأغيار، وهناك صادفا امرأة جالسة بجوار جرمينال تدنو منها رائحة كريهة، وتدخل في حديث معهما حول أغنياء يوتوبيا وتحدثهم عن أسرارهم، وعلاء وجرمينال شخصيا لم يكن لهما علما بها، وعلى سبيل التطفل قال لها علاء أنّه يشتغل عند مراد بك (أي أبيه) فأعطته معلومات عجيبة عن أبيه حتى بدأ يتذكر كيف كان سلوك أبيه، ثم انخفض صوتها وألقت برأسها للخلف وتعالى شخيرها.

وأخيرا وصلا إلى أرض الأغيار، ودهشا بتلك المناظر المقرفة، وعلى أبواب بعض العشش تقف نساء قذرات بشعات المنظر تنظرن إلى علاء بإغراء وهنّ تبحثن عن طالب شهوة يغدقهن بالمال، فقامت إحداهن بالغمز لعلاء، وهنا خطرت له فكرة وهي صيد تلك الفتاة، فذهب معها إلى مكان مقفر وعندها هوى على عنقها بضربة يد فسقطت على الأرض بلا حراك، وفي هذه اللحظة لحقت به صديقته وظنا أنّ الأمر قد انتهى وقاما بالاتصال بمن سيخرجهما من هناك... لكن حصل ما لم يكن في الحسبان فقد اكتشف أمرهما من قبل سكان مدينة الأغيار، الذين عرفوهما بأنّهما ليسا منهم بل من يوتوبيا، وهنا انتقل الكاتب إلى الجزء الثاني (الفريسة) تحدث فيه عن جابر الأعرج وهو شاب مثقف يروي قصة حياته لما فقد قرينة عينه في شجار عنيف من أجل فتاة في الماضي، كما روى قصته مع عدة نساء أخريات عرفهن، وقد كان جابر هو منقد علاء وجرمينال من سكان الأغيار، والشيء الذي حرك قلبه هو جرمينال التي ذكرته بأخته صفية، فجابر لا يطيق أن يرى فتاة ما في مأزق، فقام بأخدهما إلى بيته بعدما دافع عنهما وشهد ضد ما رآه وقال بأنّ الفتاة وقعت لوحدها.

ويكمل الكاتب القصة في الجزء الثالث (المعنون كذلك بالصياد) وفي هذا الجزء يروي الروائي قصة علاء وجرمينال في مدينة الأغيار، وقد كانت نهاية القصة في الجزئين الأخيرين من الرواية بمساعدة جابر لعلاء وصديقته على الخروج من مدينة الأغيار وذلك عن طريق العبور عبر نفق يوصل لمدينة يوتوبيا، وفي الطريق إلى يوتوبيا قام علاء بقتل جابر وأخذ يده معه كتذكار لمغامرته الطويلة.

وتنتهي الرواية بحدوث انقلاب من قبل سكان مدينة الأغيار على مدينة يوتوبيا بعدما سمعوا خبر وفاة جابر ومعرفتهم باغتصاب علاء لأخته صفية الصغيرة، وقد كانت النهاية مفتوحة.

الخاتمة

الخاتمة:

وأخيرا وصلنا إلى ختام بحثنا هذا، وليس ختام البحث في الموضوع الذي كلما أغلقت نافذة من نوافده، شرعت بابا من أبوابه الواسعة، ولكن إحتكاما لطبيعة كل عمل ، وأن لكل بداية نهاية فإنه كان لابد علينا أن نضع نقطة الختام موقنين أننا رغم اجتهادنا ما أصبنا إلا قليلا من هذا البحر الواسع، وقد كانت البداية بفلسفة اليوتوبيا والديستوبيا والنهاية بتأثيرها على الأدب والرواية بوجه خاص بتجربة سردية منفردة للكتاب " أحمد خالد توفيق" الذي جمع فيها بين الواقع والخيال ، بالإضافة إلى الجانب النفسي الذي برز من خلال الإضطرابات التي تعاني منها شخصيات الرواية والتي كانت تحصيل حاصل للواقع الذي تعيشه وللفكر الذي تتبناه، فالعالم اليوتوبي والديستوبي الذي بناه الكاتب في عمله الفني كان مرآة عاكسة لسلوكات منحرفة قامت بها الشخصية في الرواية وهذا ما جعلها تصنف ضمن أنماط شخصية مختلفة مثل (النرجسية، السيكوباتية، العاطفية، الإنطوائية، الإكتئابية...).

وعليه نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

1- يمكن تصنيف رواية يوتوبيا من بين روايات الخيال العلمي ، وذلك لما تحمله في طياتها من عوالم خيالية وتنبؤات مستقبلية وإستكشافات علمية وأفكار فلسفية عميقة.

2- تعتبر قضية الصراع الطبقي والفوارق الاجتماعية من بين أهم الأسباب التي أفرزت مجتمعا مصريا يعاني من الاضطرابات النفسية والتشتت الفكري ، وهذا ما أكده أحمد خالد توفيق من خلال شخصيات روايته.

3- ارتكزت رواية يوتوبيا في مجملها على الموضوعات الإجتماعية والقيمية الأخلاقية، ويبرز ذلك من خلال مجموعة من العناصر التي تطرق إليها أحمد خالد توفيق كتكريس الطبقية ، تزييف الوعي والتحلل الديني والخلقي، طمس الهوية، العنف والدموية ، العبثية واللامبالاة.

4- اتخذ احمد خالد توفيق من عنصر المكان وسيلة سردية عبر بها عن الواقع السياسي والإقتصادي الذي شهدته الساحة المصرية في ظل الأنظمة الامبريالية الديكتاتورية المستبدة ، ومدى انعكاسها على نفسية وأحوال المجتمع المصري.

5- كان عنصر اللغة في الرواية خطابا سياسيا واضحا أراد الكاتب من خلاله أن يوصل صوت الطبقة المهمشة التي تعيش الإستغلال في صمت راضخة للطبقة الحاكمة، كما كانت اللغة أداة لإيصال الإيديولوجيات التي تدور في ذهن الكاتب.

6- يمكن القول بأن الدين كان مظهرا من المظاهر الثابتة في المدن اليوتوبية والديستوبية، حيث عكس لنا الرؤية المغالطة لتعاليم الديانات السماوية لدى شخصيات هته المدن.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

أولا: المصادر

- أحمد خالد توفيق، يوتوبيا، ط1، دار ميريت، القاهرة، 2008م.

ثانيا: المراجع

I- المراجع بالعربية:

1- أبو نصر محمد الفرابي، آراء المدينة الفاضلة ومضاداتها، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

2- أحمد خالد توفيق، ممر الفئران، الكرمة للنشر، القاهرة، 2016م.

3- أحمد زياد، الرواية دراسات نقدية متنوعة، ط1، دار المعارف، بيروت، لبنان، 2005م.

4- أحمد عكاشة، علم النفس الفسيولوجي، ط5، دار المعارف، القاهرة.

5- أحمد مرشد، البنية والدلالة في الرواية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م

6- أسماء شاهين، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ط1، دار فارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001م.

7- الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي، ج11، ط1، 1997م.

8- آمنة يوسف، السرد في النظرية والتطبيق، ط2، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 2015م.

9- بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1987م.

10- داوود حنا، الشخصية بين السواء والمرض، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1991م.

11- سوسن شاكر مجيد، اضطرابات الشخصية أنماطها، قياسها، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015م.

12- سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م.

13- عبد الله البستاني، البستان، ج2، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1930م.

14- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، 1998م.

15- عبد المنعم لبيب الحنفي، مقدمة في فلسفة التربية، ط2، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1967.

16- عطيات أبو السعود، الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1797م.

17- عكاشة محمود، عالم اللغة، مدخل نظري في اللغة العربية، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2006م.

18- علي عبد الواحد وفي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ط2، لجنة البيان العربي للنشر والتوزيع، 1961م.

19- فاطمة بربجكاني، الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة، قراءة في رواية أورويل في الضفة الجنوبية لفوزي دبيان، 2018م.

20- مجدي أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، دار المعرفة الجامعية، بيروت، لبنان، 2000م.

21- محمد حسن غانم، الإضطرابات النفسية والعقلية والسلوكية (الوبائيات-التعريف-محاكاة التشخيص-الأسباب- العلاج-المآل والمسار)، ط1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ، 2005م.

22- محمد حسين مهدي، المدينة الفاضلة في فلسفة الفرابي وموقف الإنسان منها، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2014م.

23- محمد شحاتة ربيع، علم نفس الشخصية، ط1، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2013م.

24- مدحت عبد الحميد، الاكتئاب دراسة في السيكوباثومترية، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

25- ياسين النصير، الرواية والمكان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.

26- يعقوب ايميل بديع، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم، بيروت، لبنان، 1982م.

II- المراجع المترجمة إلى العربية:

27- أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، تر: (فايز الصباغ)، ط4، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005م.

28- إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، تر: (فؤاد كامل)، مكتبة الغريب، القاهرة.

29- آن ماري توماس، كيث بوكر، المرجع في روايات الخيال العلمي، تر: (عاطف يوسف محمود)، المركز القومي، القاهرة، 2010م.

30- إيمان تاور سارجنت، اليوتوبية مقدمة قصيرة جدا، تر: (ضياء وراد)، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016م.

31- ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان، تر: (السيد عطا)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

32- توماس مور، يوتوبيا، تر: (إنجل بطرس سمعان)، الهيئة المصرية للكتاب، مصر.

33- جورج أورويل، 1984، تر: (أنور الشامي)، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2013م.

34- ديفيد سيد، الخيال العلمي، تر: (نفين عبد الرؤوف)، ط1، مؤسسة هنداوي، 2012م.

35- ستيس ولتر، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: (مجاهد عبد المنعم مجاهد)، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1984م.

36- فيليب هامون، سيميولوجيات الشخصية الروائية، تر: (سعيد بن كراد)، دار الحوار، سوريا، 2013م.

37- كارل ألبرت، أنماط الشخصية أسرار وخفايا، تر: (حسين حمزة)، ط1، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2014م.

38- ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، تر: (عطيات أبو السعود)، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.

39- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: (محمد برادة)، ط1، دار الفكر للدراسة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987.

III- الموسوعات والمعاجم:

40- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، المجلد 7، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م.

41- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، (باب الطاء)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

42- إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، حرف الطاء، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م.

43- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، تركيا.

44- إسماعيل عبد الفتاح، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، عربي إنجليزي، دط، دت.

45- عبد المنعم حنفي، الموسوعة الجنسية النفسية، ط2، 2001م.

46- فيروز أبادي، قاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، الأردن.

47- مجموعة مؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة

48- مجموعة مؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

49- محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق حسين ناصر، ج18، مطبعة حكومة الكويت، 1969م.

IV- المجلات:

50- أسماء إبراهيم حسين شنقار، الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها، ولغتها) ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، قسم اللغة العربية بكلية التربية، جامعة دمنهور، العدد الخامس، 2020م.

51- عبد العزيز لبيب، "الإيطوبيا والإيطوبيات"، مجلة فصول، مجلد 07، العدد (3-4)، 1987م.

V- المواقع الإلكترونية:

52- وكيبيديا الموسوعة الحرة، http://ar-m-wikipedia.org/wiki .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

المحتوى	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة	أ- ج
مدخل: لمحة عامة عن ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا	
1- مفهوم اليوتوبيا	05
2-أعلام اليوتوبيا	08
2-1- في العصر القديم	08
2-2- عند الفرابي	09
2-3- توماس مور	10
2-4- توماسو كامبنيلا	12
3- مفهوم الديستوبيا	14
3-1- أشهر الأعمال التي تناولت الفكر الديستوبي	16
1: دراسة نفسية للشخصية اليوتوبية والديستوبية انطلاقا من الرواية	
الفصل الأول: الدلالات النفسية للشخصية اليوتوبية والديستوبية	22
1- مفهوم الشخصية	22
أ- لغة	22
ب-اصطلاحا	24

ج- في علم النفس	25
2-أنماط الشخصية اليوتوبية	26
أ- شخصية علاء	26
ب- شخصيتي مراد بيك والحمزاوي بيك	33
ج-شخصية لارين	37
د-شخصية جرمينال	39
3- أنماط الشخصية الديستوبية	41
أ- شخصية جابر	41
ب- شخصية صفية	46
ج- شخصية سمية	48
الفصل الثاني: انعكاس نفسية الشخصيات اليوتوبية والديستوبية من خلال المكان، اللغة، الدين	52
1_ المكان	52
أ- مدينة يوتوبيا	54
ب- مدينة الأغيار	57
2_اللغة	63
3_ الدين	71
الملحق	83
الخاتمة	89

قائمة المصادر والمراجع	92
فهرس المحتويات	97
الملخص	100

ملخص:

يأتي هذا البحث لتسليط الضوء على الفكر اليوتوبي والديستوبي وعلاقته بنفسية الشخصيات في الرواية، ومفهوم الشخصية وأنواعها من خلال التحليل النفسي، الذي كشف لنا عن الاضطرابات التي ربطها "أحمد خالد توفيق" بالصراع الطبقي الذي أفسد تركيبة المجتمع العربي، وألغى الطبقة الوسطى مما أنتج ما يعرف بثنائية المدن الصناعية المتقدمة، والمدن المتخلفة الجاهلة، وكانت النتيجة في النهاية ولادة أفراد في المجتمع المصري يعانون من عقد نفسية ومشاكل اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: أحمد خالد توفيق – اليوتوبيا – الديستوبيا – الشخصية – التحليل النفسي–الصراع

Summary :

This research comes to shed light on the utopian and dystopian thought and its relationship to the psychology of the characters in the novel, and the concept of personality and its types through psychoanalysis, which revealed to us the disorders that Ahmed Khaled Tawfiq linked to the class struggle that spoiled the structure of Arab society, and abolished the middle class, which produced what is known The duality of advanced industrial cities and backward, ignorant cities, and the result was in the end the birth of individuals in Egyptian society suffering from psychological complexes and social problems.

Keywords: Ahmed Khaled Tawfik - utopia - dystopia - personality - psychoanalysis - conflict